

البتبع وأمعنى الروح

تأليف

عبد العظيم مصطفى سعيد

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ وَعَلَى نَهْجِ مَنْ قَدَّرَ تَكْرِيماً
أَخْطُ صَفْحَةً مِنْ صَفْحَاتِ الْعُلُومِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ

نشوء العقليّة والتاريخ

لقد فهمنا أن الحياة كان يقدر لها وضع آخر لو تحكّم آدم في طباعه ونوازهه في عزم وصدق إرادة ؛ وفهمنا أنه كان في جنة ، ولكن أين ومتى ؟ . فذلك شيء لم يحققه لنا التاريخ .

وحيث نشأت الأسر وتكونت الجماعات ، نشأت عقليات عرفت كيف تؤرخ للحوادث . وحيث ابتدأ التاريخ كان قد غابت عنه فترة قدرها المؤرخ الأول على شيء من المبالغة والتهويل ؛ بقي في أساطير الأولين حتى بنينا عليه بداية الحياة قبل التاريخ بملايين من السنين . والواقع أنها حين ابتدأت بآدم كانت تنبئ بالهجرى المعروف في التاريخ ؛ وحيث ثبتت بنوح كانت قد خرجت من صيد إلى سياحة ، وهذا وذاك لم يخرج عن القرن الستين قبل الميلاد .

ولقد فهمت تلك العقليات . أو تخيلت أن الأرض تتصل بالسماء في محيط ، وأنها بقعة من بقعه ؛ وحين قدرت لجنة آدم موضعاً قدرته في نقطة من السماء أو على جزيرة من جزر ذلك المحيط ، وقد بقي هذا التقدير حتى فهمنا خطأ أنها كانت على واحد من السكواكب .

ولقد نزلت شرائع ، وجاءت أديان ؛ لتصل بالعقلية إلى ضبط في تحليل أو تحرّيم ؛ ووقف الإنسان منها على عناد أدى إلى خلط في التدوين . ولقد كان لكل نبي لبنة في بناء الإنسانية ، ولكنها قد تناساها التاريخ ، وتخبطنا في موضعها بين أحداثه . وكان كل مصدر من مصادره يغذ

في سيره دون أن يلوى على واحدة منها بتفصيل علمي أو زمني ، وامل ذلك كان ... لأن ما وصل إلينا من أساطير ، كان لعلماء يونانيين ؛ إذ كانوا لا يمتون إلى الأديان السماوية بصلة .

ولقد كان كل تدوين يتأثر بعقلية المدون أو جنسيته أكثر مما يتأثر بالرأي العام . وقد قسمت العقلية أو الجنسية إلى سامية وآرية ، والواقع أنه لا معنى لهذا التقسيم . أو أنه تقسيم وقتي ريثما تتجه العقلية إلى تفريع جديد .

والتاريخ للعقلية ليس من السهل بحيث ينتهي عند إعداد قلم أو قرطاس . على أنه شيء لم يعرفه إلا العلم الحديث ، وعلى بداية ؛ وحين يبتدىء يبتدىء بما قبيل الإسلام ويتناول معه عقلية اليونان . أما فيما عدا ذلك فيعوزه بحث أو تنقيب لرده في فهمنا إلى صواب .

ولقد بنيت قوميات وفنيت أمم ؛ وأما نسبة هذه أو تلك لنبي فقد وقف التاريخ منها على صمت ؛ ولم يوسع صدره إلا لسامية ! . . أو إسماعيلية أو إسرائيلية لا غير .

ولقد كان التدوين يعنى أكثر ما يعنى بالأحداث والوقائع ؛ وأما الناحية التاريخية لنشأة لغة أو تطور عقلية فما زالت تحت أنقاض التاريخ . وإننا سنحاول أن نرد لكل نبي قوميته أو ذريته مع توضيح لحقيقة دينية غامضة أدت إلى تمسك الإنسانية بإله منها . وآخر لنشأة لغوية تربط به أواصر تلك اللغات ، كما نصل به مع الإنسانية في تدرجها الفكري إلى تحللها من هذا الإله .

غيب ما ممول

ما أطيب الحياة لو لم تعكر بموت . أو توصف بكدر . وما ألد نعيمها لو أعطاه الإنسان على عقل وبصيرة . وما أخصبها تربة ؛ وأسرعها إنتاجا لو أصابت من البدء رجولة سريعة من بنوة آدم . ولكن عقلية آدم كانت صحيفة بيضاء على نحو ما ندرسه للطفولة في علم النفس . وكان كثيراً ما ينسى دروسه التي يتلقاها عن ربه . وقد بقيت بنوته على بطء في بناء معرفتها ، وتكوين علومها ؛ لا لشيء إلا لأنه لم يسبقه عصر ما من عصر الحضارة يستطيع أن يأخذ منه مادة للبناء .

ولقد ركنت الحياة بعد آدم إلى كسل كان إرثا لكل غباوة . وإن آدم يمكن أن نلتمس له عذراً في ذلك . . ولكنه الله سبحانه ما التمس له ذلك : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فَنَسِيَ ولم نجد له عزماً » . وإنه سبحانه كان يريد أن يأخذ آدم بالشدة لا باللين . وكان يريد منه أن يبني لنفسه بنفسه . وبنيه من بعده مادة للمعرفة . ومادة للبناء . وأساسا لحضارة المستقبل . وإن عقلا ما . . لا يمكن أن يأخذ تكوينه إلا بعد مشاهدة واستنباط .

وإن الحياة تجربة واختبار . والعقل لا يحص إلا عن هذا الطريق . إن آدم كان يجب عليه أن يجرب ويختبر . ويبث في ذريته شيئا من حب الاستطلاع بما أخذه عن ربه من إرشاد . ولكنه لم يستطع ذلك . وكان لله أن يأخذ ابن آدم ببنتليه . ليمرن سمعه . ويجرب بصيرته . ليصل إلى المعرفة بنفسه عن طريق المشاهدة . ومقارنة الحقائق بعضها ببعض .

واقدم كان الإنسان الأول طفلاً في عقله . وطفلاً في تكوينه . وكان كثيراً ما تنعرج به الطريق إلى المعرفة وكان أحوج ما يكون إلى مرشد . وكان كلما ضاقت به المعرفة أو وصل فيها إلى جمود هيء له بعث جديد ليضع لبنته في هذا البناء .

وقد كان كل نبي يترك ذرية ؛ ربما اعتبرت أصولاً صالحة للإنشاء والتعمير . وربما تغلب الضعف على بعض منها فأبطأ ، وأبطأت به الحياة عن سنة التقدم والارتقاء .

لقد كان على الإنسان أن يبني ويعرف هندسة الطرق والبناء ، وكان عليه أن يزاول العلوم ويعرف طبائع الأشياء . وكان عليه أن يزاول التجارة ويعرف علوم الاقتصاد . . . الخ ولو أمكنه أن ينسج ثوبه ويزخرف عمارته على عقل وبصيرة في الدين لخطت الإنسانية بخطوات واسعة إلى حضارة القرن العشرين . ولقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . وحين بنى عقله على شيء استحق أن يقال في تكوينه العقلي أو العلمي « إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » .

ولقد استطاع الإنسان أن يبني حضارات ، ويقوم مدنيات ، ولكنها لم تكن على شيء ؛ إذ لم تكن الإنسانية قد أخذت بسبب من السماء ، وكان نصيبها التدمير . وما اتصل منها بسبب تجاهله أو تعامى عنه التاريخ . « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُومًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . . . وَزُخْرُفًا » .

ولقد كان ذكر جنة أونار في ذلك للترغيب والترهيب فقط . . . ؛ كأسلوب

من أساليب التربية والتعليم . وكان يشتد وقع ذكر جنسة في نفوس قوم يسكنون بطون الصحراء ، فإذا لمسوا منها شيئاً بعد الهجرة على ضفاف الأنهار تربعوا عليه ونسوا بؤس الحياة ، في حين أن آخرين حسبوها شيئاً آخر في غيب السماء ؛ والواقع أنها لم تكن أزيد من ذلك إلا بقدر ما يجد في المعرفة من بحوث واختراعات تهيئ لهؤلاء وهؤلاء جزءاً من السعادة .

إننا في الواقع لو أتينا بذلك الإنسان الأول لو فرضناه معدوماً ليعيش معنا في ربوع العلم ؛ وتحت ظل من حضارة القرن العشرين ما شك في أنها جنة ، وإن الغيب الذي كثر تردده في الدين هو كل جديد تأتي به رسالة ، أو يستحدثه عقل ، أو ينتجه نبوغ ؛ وهل يعلم سابق أو لاحق ما ستكون عليه الحضارة بعد قرن مثلاً أو قرنين .

ولقد كان الموت أشد ما ابتلى به الإنسان ، حتى جرى خطأ على الألسنة أن الدنيا دار فناء ؛ وقد كان يشتد وقعها إذا أصاب عاهل أسرة أو رب جماعة ؛ حتى ضلت الأفهام وحارت العقول فيما بعد الموت ، وإن الأمر ما كان يستدعي ذلك لو كنا على هدى وبصيرة . وماذا يصنع الله بالإنسانية التي يتباهى بها إذا كتب لها فناء بعد الموت . أو قدر لها بعداً عن المعرفة بحياة روحية فقط كما هو شائع في الدين .

إن ابن آدم ما فنى بجسمه ولا بروحه إذا مات أو أعلنت له الوفاة ؛ إنه يتمتع بقسط وافر من الحياة على ظهر الكواكب كل حسب دينه وتكوينه في دنياه . «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا ؛ بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»^(١) ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ^(٢) . أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وإن ذلك أمر عام لمن قتل أو لم يقتل

(١) لا يفهم من رزق إلا أكل وشرب وهذا يؤكد وجود هذه الحياة بشكها الأول .

(٢) أي المخالفون معهم في الدين .

في سبيل الله . فإذا بعث نبي ، وأوجد فصلا في الدنيا بين حياة وحياة ، وثبت
لدينه وجود واعتراف عام هي له ولأنصاره بعد الوفاة حياة على ظهر واحد من
الكواكب ، وألقى بالخائفين في آخر مع من سبقوهم من المحافظين أو الرجعيين
عن كل تجديد . وقد أصبحت هذه الكواكب موردا لموتى كل دين بعد
الإحياء . كل نبي مع أمته يبعث فيها الحياة ويردها إلى الصواب إن أخطأته
في الطريق ؛ كما يتعلم السابق من اللاحق كل ما يحدث على ظهر الدنيا من أسباب
البعث والتجديد .

هذا ما يجب أن نفهمه في شأن الإنسانية بعد الموت . وهل يتباهى الله
سبحانه بخلق سماوات سبع وتسكون مجدبة من الحياة ؛ أو واقفة عند التراث
الأول من العلوم ؟ . . . « بَلْ أَدَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ
هُمْ مِنْهَا عَمُونَ » .

إن الدنيا يجب أن نفهمها للآخرة دار تجربة وتمهيد ؛ يتعلم فيها الفرد
طرق الكسب ؛ فيخطط لنفسه أو غيره حذاه ليصنعه كذلك في الآخرة ؛ كما
يتعلم هندسة البناء أو الري . . . الخ لينبئ لنفسه أو غيره داره . أو يدير تجارته أو
يحسن الفلاحة . فتتكون المدينة وتتهيأ أسباب الحضارة للآخرة .

ونحن في الدنيا قد تعلمنا كل شيء ؛ وفهمنا كل شيء . . . تعلمنا كيف تقام
الممالك ، وكيف تساس الدول . وفهمنا أسباب الهدم في كل شيء حتى نكون
منه في الآخرة على حذر . وقد أخذنا الله على هذا النهج التدريجي منذ البدء ؛
حتى إذا أعلن انتهاء هذه الفترة يكون المستقبل قد تمت عدده ، وتهيأت أسبابه .
وقد أمهنا الله كثيرا ، وأمد لنا في العمر حتى لا يكون هناك عذر لعنذر .

والعالم الآن قد أخذ طريقه إلى السكال ، ولم يبق على فترة الانتقال سوى

تجديد في وسائل التربية والتعليم ، وقوة تفكير تصل بالعقلية إلى إرسال ؛ ولو في واحد فقط من الناس : « وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ^(١) » .

هذا ما يمكن أن يقال في شأن جنة . وإن جنة وعد بها المتقون أقل من ذلك بكثير . وإنما لم يصفها القرآن إلا وصفا مجملا خلى من علوم أو اختراع واعلمها وقف تعريفها إلى هذا الحد لأن ذلك لم يكن إلا من حضارة القرن العشرين . « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ * أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ؛ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ؛ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ » . أما النار فلا أعتقد أنها جحيم . أو ترمى بشرر كالتصحر ؛ وربما كان ذلك معنى للموجات الكهربية أو الأشعة الخيالية التي يستطيع أن يكونها الإنسان لنفسه حين يصل بعقليته إلى إرسال لاسلكي ؛ ولعل ذلك يكون موضع منافسة بين الجميع . وإن ذلك لن يكون إلا تكويننا للشخصية على نحو ما سنبينه بعد . « قُلْ يَا قَوْمِ : أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ - أَي تَكُونِ شَخْصِيَّتِكُمْ - إِنْ عَامِلٍ فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ * مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ؛ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » .

وربما كان ذلك أيضا معنى للتفرغ الكهربي بين الأمم في حروبها العالمية . وقد تمت ديانة زرادشت إلى شيء من هذا المعنى ؛ فما جاد من الأفكار أخذ شكلا ناصعا ومن نور ؛ وما خبث اختلط بشوائب الحياة . « اللهُ نُورٌ ^(٢) السَّمَوَاتِ

(١) الخروج والتخرج والبعث والنفخ في الصور كلها ألفاظ مترادفة فيقال فلان تخرج على فلان في الأدب كما يقال قد نفخ في صورة فلان أي أخذ بيده إلى السكاهل حتى أن كلمة البعث والتجديد أصبحت ملازمة في الخطابة لألفاظ الرعماء وساسة الدول ولا تعدو الصيحة أن تكون صيحة تنبيه من غفلة أو نسيان والنفخ في الصور أي الشكل والصورة الكهربية للإنسان والمنعكسة في زرقة السماء والتي يلتقطها اللاسلكي بأحد أجهزته .

(٢) أي منيرها بموجات كهربية يشعها لاس وجان عندما تستمد النفس لتجمل جزء كبير من المشاق .

وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَشُكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . إلخ . « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ؛ بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . إلخ . » . وقد بقي هذا اللفظ « النار » على حروفه ومعناه لأن الإنسانية لم تتخلص بعد من شوائب الحياة . أو ما يسمى بأخطاء في عرف الدين ، أو لأنها ما كانت تعرف من قبل شيئاً عن تلك الموجات الكهربية التي يمتلئ بها الجو ، وأعله استوثرته له هذه الحروف لتبلغ العظة من النفوس ، وليعلم الإنسان أنه ما خلق عبثاً ، وإن يترك سدى ؛ وحتى يأخذ لنفسه طريقاً جادة في الحياة . وليس معنى هذا أن الإنسان سيفلت من عقاب ؛ وإن نعيم الآخرة ان يوزع إلا بقسطاس ، وعلى حسب مقدار استعداد الأنفس للتخلص من أخطاء الحياة .

هذا شيء عن النشأة الأولى . وقد أرادها سبحانه أن نكون من تكوين الإنسان . ويمكن أن نقدر مدتها عند نزول القرآن بستة آلاف سنة قبل بعث محمد أو قبل الميلاد من قوله تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . » مع قوله تعالى : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » وخلق سموات : خلق عقليات وأرواح يمكن أن ترتبط بالسماء . أما نشأة أخرى فقد قال الله فيها : « وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَةَ الْآخِرَى » بعد تجلية الأمور وتوضيح السبيل لكل إنسان بعد إرشاده إلى ما أخطأ فيه وما أصاب . وبعد بعثرة العلوم والمعارف عندما يأخذ منها الجاهل بنصيب وافر يتساوى فيه مع العلماء . ثم يدعى قسراً إلى اعتراف إثم أو إتيان محرم . أو يدعى إلى تقديم عقلية في العلوم بعد تضليلها عليه فمن أثبت رجولة نجاً وإلا فلا « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَئِيسَ لَوْفَعَتْنَهَا كَاذِبَةٌ ؛ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ » .

قد خلق الله آدم بهذه الكيفية وهذا النظام مع قصد وعناية من ذات الله .
على أن خلق الديدان أو جراثيم الجو لم يخل أيضا من قصد .
والثمار والنباتات تمثل المعادن في واحدة أيضا من حالاتها . ويمكن أن
نقوم بعملية التكوين الأولى للحياة في شكل أوسع بوقوع نقطة ما... من الثمرة
تستكمل كل أنواع المعادن المكونة للحياة ، ونسبها المطلوبة ، وتحت ضغط
ما... من حرارة الجو أو موجاته الكهربية يحدث ما نسميه آفة سماوية ، ينشأ
عنها تكوين ديدان بالثمرة ، وقد تتطور إلى حشرة « سوس » في مثل العدس
والفول ، وقد نلاحظ عند كسر القولة وعند وجود هذه العملية بها مادة مخاطية
في هذه النقطة تشبه المادة المنوية ، أو بمعنى آخر تشبه خلايا انجست من جسم
الإنسان فيصرفها الله بما يعرف في علم الطب بخراجات ، ولولا رافة بالإنسان
اتحولت إلى ديدان . على أن بعض الأحياء وخاصة السمك لم يسلم من تحولها
إلى ديدان . وربما كان خلق حواء من آدم بهذا النظام .
أما كيفية الأحياء فيكون بتوجيه صورة كهربية خيالية للحشرة أو الجنين
إلى هذه المادة لتتشكل بشكلها ، وأما الناحية الفكرية لهذه الصورة فتكون مما
يدور حول الأب من أفكار أثناء تكوين الجنين . أو من الحياة العملية التي ستستعد
لها الحشرة وتركز في خلايا المخ والأعصاب . « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ ؛ فَسَوَّاكَ ؛ فَعَدَّكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »
ولقد أخذني البحث ، والرغبة الملحة في التفكير إلى عمليات عرفت بها
معنى الحياة ، تلك العمليات : هي عملية التحويل في المعادن بين حالاتها .
ثم عملية التغذية أو الهضم ؛ وإلى أي مدى يكون انتفاع الأعضاء بها . ثم
وقوع واحدة من هاتين تحت ضغط ما من حرارة الجو .

إن الحياة ليست بالشيء الهين عند الله . وإنما يجب أن تكون كذلك عند الإنسان . ولكن الإنسان حتى الآن ما عرف قدر نفسه « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » .

لقد فهمنا أو يجب أن نفهم أن في الإمكان تحويل الطين إلى مادة حديدية في حالتها الأولى ، أو أقرب إليها بعملية الاحتراق ؛ كما نشاهد ذلك في تحويل اللين « الطوب الأخضر » إلى آجر ، وإن أول ما يتصاعد منها المعادن الكربونية^(١) من صديومات و بوتاسيومات . وهي أيضا تساعدها على الاحتراق مع ما يلقي لهذه العملية من فضلات . وما الحديد في أول حالاته إلا رمال انعدمت . أو كادت تنعدم فيها المادة الكربونية التي تغلب على الحجارة ورمال الصحراء . وربما كان في الإمكان تحويل الآجر إلى حديد بعد زمن ما . . من دفنه تحت الأرض . وكل ذلك يمكن أن نعمله لو أعوزتنا مادة الحديد . هذا شيء . . والمعادن في تكوين الإنسان والنبات شيء آخر . كلا !!

لا أقول شيئاً آخر ، إن المعادن هي هي ؛ ولكن كيف تحولت من تراب إلى غذاء . ومن غذاء إلى خلايا وأجسام إنها القدرة . إن البذور لتنمو . وإن الماء ليدها بقسطها من الغذاء . وإن عملية الامتصاص لتواتبها من التربة بما تشاء وفي خفاء . وإن ذلك مما لا يمكن أن يدخل تحت تجربة واختبار ،

(١) هذا تعبير باعتبار ما سيكون لشدة الامتزاج بينها « أي المادة الكربونية »

أو يتحكم فيه الإنسان بأنبوبة أو مسبار . « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِإِحْلَافٍ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ » .
 إن نظام الطبيعة ليس آليا كما يدعون . وإذا كان آليا فهل حادت شجرة عن نظامها أو خرج نبات عن خصائصه ومميزاته أو أبطأت الأرض دقيقة في دورتها حول الشمس ؟ . . . كلا !! وإنما والله لأهدى من الإنسان وأبعد عن عمايته وضلاله .

إننا لو سألنا : لم اختلفت أوراق الأشجار من المعادن بالكربون الملون لها وللأزهار لعمى ابن آدم عن الجواب . ألم يفهم أنه أسرع في الصعود والتبخير المعدني من أى معدن آخر ؟ . . . وألم يستعمله للهضم مع المشروبات ؟ . . .
 وإن عمليات تكوين جسم الإنسان من حيث تركيبه المعدني بالتغذية — لا أدعى إلى الاستعجاب من حيث قدرة كل عضو على استخلاص مادته الغذائية التي تساعد على تكوينه . أو بالأحرى المعدن الغذائي الذي يغلب في تركيبه⁽¹⁾ .

إن أول ما يصادفنا في ذلك قدرة الأمعاء على امتصاص المادة الغذائية .

(1) يغلب على الكبد والطحال في تركيبهما المعدني المادة الكربونية التي سبق التعبير عنها ليؤديا وظيفة امتصاص عصارات الهضم من الأحماض المعدنية الأول للادخار والثاني للجمع . ويغلب على الأعصاب النحاس والبيلاتين ليولدا حرارة زائدة لازمة لصهر الأغذية . ويغلب على ماء العين الفضة والنحاس في حالة مائية لتتمكس عليها صور المرئيات أما إنسانها أى سوادها فننحاس خالص وأما حبه فننحاسيين ليحدث بينهما تفاعل كهربي يساعد على جذب الصورة كما يقوم بعملية السلب للزائد من حرارة الأعصاب وأما بويضات التناسل في الذكور فواحدة من نحاس وأخرى من رصاص لسلب وضبط للشهوة في آن واحد نتيجة تفاوت كبير بينهما في درجة توصيل الحرارة وذلك يقوم مقام تصغير أو تكبير في كرات الشحن — أما في الأنوثة فقصدير بدل الرصاص ليزداد التفاعل اللازم للجنين وقد يستوى الذكور والأنثى في نصيبهما من القصدير في الجلد وفيما يعلو أعضاء التناسل فقط .

فهذه مادة نباتية أو حيوانية تحولت إلى أحماض غذائية ؛ وتلك خلايا تكونت ،
وصارت أجهزة وفي قدرة على الامتصاص .

وإذا كان للأعضاء وعلى قدرة أن تمتص تلك المادة الغذائية في حالة
أحماض فكيف تحيلها إلى خلايا وعضلات ؟ . إنها تأخذ لونا قرمزيا أو قريبا
منه من الأمعاء . وإن الأعصاب تمدها بالحرارة اللازمة فتصهرها ، وتحيلها إلى
حالة دموية صالحة لمد الأعضاء والخلايا بما تشاء . فإذا حملتها الأعصاب ووصلت
بها إلى نقطة ما قريبة من الجلد ، ثم لمست برودة ظاهرية محيطة بالجسم جمدت ،
وتحولت إلى خلايا وعضلات . وما بعد عن ظاهر الجسم بقي في انصهار في
أوردته وشرابينه ؛ ليمد الجسم بما يشاء وقت الحاجة .

إن الدم خلايا منصهرة . وإنما إذا أقمينا جزء منه في ماء يغلي تماسك ،
وجمد ، وصار كتلك التي نشترىها من محلات الجزارة بعد الطهي . وإنه مواد
معدنية مختلفة . ولكن كيف يمتص كل عضو معدنه المشاكل له منه ؟ ... إن
ذلك يمكن أن نفهمه بما نسميه بعملية الائتلاف ؛ وإن تلك يمكن أن نفهمها
بقطمان من حيوانات مختلفة . هيجت واختلطت . فإذا زجت لتفرقة عاد كل
حيوان إلى قطيعه بعامل ألفة سابقة

هذا وتأثر المعادن بالحرارة ، واختلافها في مقدار هذا التأثير قد فهمناه ؛
وأقننا عليه التجارب في علوم الطبيعة . والمعدن هو هو يحتفظ بخصائصه ومميزاته

== وقد استنتج أيضا أن حقن سواد العين بالحارصين يعبد البصر لفاقده أما المخ
خلايا نحاسية قريبة من الانحلال . وأما الأذنان والأنف فن الجرافين . وأما المعدة والأمعاء
فتركيبات معدنية مختلفة حتى لا يتخلف معدن غذائي بعد عملية الائتلاف . وأرى أنها ينقصها
المادة الكربونية المساعدة على الهضم وتقليل الفضلات الخلفية . ويمكن تزويدها بها بتناول
شرب الملح بنظام .

في أى حالة من حالاته . وبهذه الخصائص يستمد الجسم أو النبات ما يلزمه من حرارة الجو أو يحتفظ بها لوقت الحاجة .

هنا يمكن أن نفهم ... لِمَ يشعر الإنسان بالحرارة بعد الهضم؟ ... و بضعفها في أثنائه؟ ... ولِمَ يشعر بضعف الحيوية عند السمنة؟ .. وشدتها عند العكس . أما في حالة المرض فربما كان لضعف الصلة بين أعصاب العضو وحركته الدموية لضعف التغذية ، فتستمر الأعصاب مشحونة بالحرارة دون أن تجد لها مصرفا في مهمة أو وظيفة .

وقد شا كل الله بين الحيوانات في تكويناتها المعدنية من حيث تغلب معدن واحد في نوع منها وضعفه في آخر ؛ ليقع بينها شيء من التأثير والوحشية يساعد على الحياة والاحتفاظ بالنوع . فالقط مثلا يمكن أن نفهمه أنه يغلب على معظم خلاياه ثم جلده نحاس فقط ، لذلك لا يمكن أن يقع تحت تأثيره الفأر الذى يمكن أن نفهمه أنه من زهر الحديد لسرعة تسلخ جلده لأقل لمس ؛ كما أن كليهما لا يمكن أن يقع تحت تأثير الكلب إذ يقارب الإنسان في تكوينه ؛ لذلك كان بينهما ألفة غريبة . أما في الحيوانات الكبيرة فبشكل إجماع ؛ وبنسب مختلفة في كل نوع ؛ حتى لا يؤدي هذا التأثير إلى غلبة نوع على نوع .

صراع بين جسيين على تفاضل

و بعد . . . فسنة الطبيعة تقتضى وجود هذا التأثير بين الأحياء ؛ وإنما لنفسه في منافسة بين أخوين ، وإذا زاد ر بما تحول إلى حسد ، ودخات فيه عوامل الانتقام . وهو بعد دافع من دوافع النهوض ؛ ليتزود كل نوع بما يشاء من أسباب الحياة . وإذا قصرناه على مستطاع أوجد تفاضلا ، وتفاضل أدعى إلى استمرار نهوض في تجديد .

إن تجارب الحياة لا يمكن أن تؤثر في النفس وفي تكوين العقل إلا إذا غرست على شدة في الطابع ، وحدة في المزاج ، وإنها لن تؤتى ثمرة إلا إذا كانت على انفصال بين جنس و جنس أو نوع ونوع لتصل به إلى استقلال في رأى أو اعتزاز بشخصية أو قومية ، وإن أطيب بذور المعرفة ، وأحسن غرس للحياة ما وصل إليه العقل بنفسه .

و بعد . . . فكيف خلق الله الجان ؟ . خالقهم على تفاضل في التركيب المعدنى من الإنسان : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ : وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ » . وهل كان الإنسان طيناً حتى فهمناه ، أو فهم نفسه كذلك . فقصر كثيراً في حق نفسه . إنه سبحانه قد عبر عن ذلك في تركيب آخر في قوله : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ » . وهل كان الجان من نار بمعناها اللفظى حتى فهمناهم أجساماً نارية كما يشاع على خطأ في الدين . . . إن ذلك لا يعدو أن يكون تفاضلا في التكوين بين معدن ومعدن ، وتفاوتا أو سعة في تفاوت في درجة التأثير بينهما بالحرارة .

إنهم ليسوا أجساماً بشعة كما يصوره انا خطأ في الخيال ، وإنهم يتمتعون بعالم عاوى دونه عالم الإنسان ، وعلى حسب الثقل النوعى للمعادن والأجسام . وإن معادن تكوينهم ما يعرف بالنيازك ؛ وهى مجموعات من معادن أرقى وأخف ، وأخصها الذهب والنحاس . وهم يعيشون كما نعيش على ظهور الكواكب ؛ يأكلون ويشربون ؛ ونخفة أجسامهم امتازوا بالقدرة على أن يسبحوا بها فى الفضاء ، كما يسبح الإنسان على سطح الماء . وأما ذلك الفضاء فهو مياه غازية سريعة التطاير أخصها النوشادر والكحول . وقد تمتاز بطبقات ومستوى سطحى كما تمتاز بذلك مياه الترع والأنهار . وكلانا فى الواقع يسير فى طريق جهاد واحد . هو إحالة لجة العالم إلى حالة غازية بما نشره من أضواء كهربية وحرارة فى الوجود . واهل الحياة وصلت إلى شىء من ذلك حيث قال سبحانه وتعالى : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ؛ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » .

إن مبدأ هذا الجهاد هو الوصول إلى المعرفة ، وتجارب الحياة عن استقلال فى الرأى ، واحتفاظ بمبدأ مودة بين الجنسين يجنبهما تطرفا فى منافسة أو وقوعا فى حسد وعداوة . ولكننا كلانا فى الواقع كنا من ذلك على طرفى نقيض .

وحين خلق الله آدم كان الجبان أو هذا الجنس من الخلق قد وصل فى معرفته أو مدنيته إلى شىء كان يخشى أن يكون موضع تلقين لابن آدم من البعض ، وإنه قد وصل بعقليته إلى إرسال أو تلقى إرسال نفهمه من قوله سبحانه : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » فى حين أن آدم لم يصل بعد إلى ضبط فى رغبته أو شهوته .

هذا وسجود أو طاعة تقع لآدم أو لواحد من بنيه من شيطان أو ما يسمى بشيطان أمر يدعو إلى الاستغراب ... إنه فى الواقع لم يكن إلا ابتلاء للجنسين

في المعرفة، ومقدار تأديب النفس . وإنه سبحانه قد جرب بنفسه ذكاء الشيطان ومقدار اعتزازه بشخصيته وكان ما كان . وترك ابتلاء بني آدم لشيطان على سياسة التخلي عن المسؤولية في مفاضلة بين قوم وقوم .

إن الشيطان أو ما يسمى بشيطان حسب العرف الخاطيء كان أعقل من ابن آدم حين سجد لفرعون . وإن أمره بسجود وضع شاذ في الدين ، وإلا . . فكيف يطيعه وهو على ثقافة أرقى ، ويتمركز في سمته من السماء . إن عداوة بين الجنسين كان أمرا مقصودا ليحتفظ كل جنس بمقوماته وشخصيته . أو بمعلوماته ومعارفه . ولعل سجودا أو طاعة كهذه كان انتظارا لما يجد في الإنسانية من رجولة يجب أن تطاع رغم تفاضل في خاتمة أو تكوين ، إذا كان أمر النهوض منافسة بين الجميع .

لذلك اختار أو اختير لشيطان سياسة الإيهال أو الانظار . على أن امتناعه عن السجود ما سماه الله عصيانا ، وما في القرآن آية تدل على أنه عصيان . وإنما العصيان كان من آدم وابن آدم . « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » .

إن شعورا بأفضلية لا يؤاخذ عليها شيطان لوجود بذورها في أصل تكوينه ؛ وإنما تؤاخذ عليها الإنسانية فيما بين الأخ وأخيه . وإن اعترافا بالهزيمة بعد كل منافسة أمر محمود في الدين والأخلاق . حسما لنزاع ، أو دفنا لدوافع وحشية وانتقام . أو على الأقل ليرقى الإنسان في شعوره وينتقل من حسد إلى شرف في المنافسة . ولعله سبحانه كان يقصد ذلك من شيطان . وإنه بعد . . سياسة في حلم ومداراة ، ولو اتخذ الإنسان مع الخطيء معه في صلابة من رأى لعاد من نفسه بعد حين إلى صواب ؛ وإنه بعد . . وبعد نبيل

الإسان قسطاً من التربية والتعليم طريق يعيش به على نهج صالح في الحياة .
هنا يمكن أن نقول إن الشيطان كان على خطأ في تفكير فقط ، أو إعداد
لجواب . وخطأ فكري كهذا لا يعاقب عليه دين أو قانون ، وإنما يؤخذ عليه
شعور أو رأى عام . وإنما بعد . . . و بعد هذا الشوط البعيد المدى في المدنية
والتقافة يجب أن نتخلص من عداوة ذكرت لنا ولهم في كثير من آى القرآن .
وأن لا نحفظ بها إلا لضعف في شخصية أو ضعف في دين ، كما يجب أن نفهم
أنهم لم يفرض عليهم موت أو فناء حين اختيرت لهم سياسة الأنظار ، و إن
إيمانهم ، أو مدار الإيمان عندهم الاعتراف بالمستقبل أو شىء منه لآدم وابن آدم .
إذا فقد كان بين الجنسين صراع فكري لا غير احتفظ الله فيه لآدم
بشئ من المودة . تقوية لجانب ضعف لمسه فيه ، وقد فهمنا كيف اختبر ذكاء
شيطان ، أما ابن آدم فلم نعرف كيف ابتلى أو يبتلى من شيطان .
إنها في الواقع كانت سياسة تدمير لما بينى على خطأ في حضارة ابن آدم
ومدنيته ، وقد فهمناها من ثنايا التاريخ ؛ أما آدم نفسه فقد ضلت في ابتلائه
وتدمير جنته بحوث كل دين .

قال تعالى : « وَيَا آدَمُ : اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْ
حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ، فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » .

لقد شاع في كل دين أن هذه الشجرة كانت شجرة حنطة أو تفاح .
ولكنه سبحانه إذا أباح له الأكل من كل شىء . ثم منعه من واحدة منهما
كان مظلوما لا ظالما . . . وإذا فأى ظلم تشير إليه الآية ، وأى شجرة تلك ؟ . . .
وهل إذا أكل حنطة أو تفاحا كانا من الظالمين ؟

إن الأمر على غير ذلك كما أفهمه ، ويفهمه العقلاء . وإن شجرة تقصدها

الآية هي تسلسل الذرية والأعقاب . وقد أراها الله له في الحيوان ، وقد منعه من اقتراب زوجته حتى لا يكون له مثل ذلك قبل أن يعد لهم مهذا صالحا في الحياة .

إن شجرة ملعونة في القرآن لم تكن شجرة حنطة أو تفاع . وإن شجرة زقوم لم تكن إلا خطايا يقترفها الإنسان . وإنما تنتقل في النطقة بالوراثة من سب ولعن وكفر وغضب حتى نشأ الابن على شاكلة أبيه . « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس . وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ . وَنُحُوفُهُمْ ، فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا » .

إن آدم لم يكن في جنة بالمعنى الشائع في الدين ، ولكنها جنة حسب العرف عند أهل الصحراء . وسكان البادية لنضوب معين الحياة بها . وإن تلك الجنة لا تعدو أن تكون مكانا خصبا عند ملتقى دجلة بالفرات . ولكن هل كان فيها ما تخرجه يد الصناعة من آنية أو غزل ونسيج ؟ .. الخ . كلا ! ! ! إذا فكان يجب على آدم قبل أن يعصى ربه باقترابه لزوجته أن يفكر ، ويجيد التفكير في إعداد ذلك ، حتى لا يظلم ذريته وبنيه بعري أو جوع ، أو يقف بالتغذية معهم عند تناول حبة أو اقتطاف ثمرة ؛ أما كسوته وحده أو هو وزوجه ، فقد كفلهما الله له إن لم يقرب زوجته . « إِنَّ لَكَ — وَحْدَكَ — أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى » . وحين عجز عن الوصول إلى شيء من ذلك في تفكير أو ضبط شهوة ، خلى بينه وبين شيطان ليعرف علة المنع ، إذ لم يكن قد فهمها من قبل ، وحين حملت زوجته حملا خفيفا فهم أنه مخطيء ، وحين منع عنه لباسه بدت له سوءته وظن أن أوراق الشجر تكفيه مؤنة التفكير في ذلك ؛ ولكن هيهات . . . إذ اشتدت عليه وطأة الحياة .

وحيث أيقن أنه غير ناجح رجع إلى ربه عليه يهتدى إلى صواب .
حينئذ احتدم الخصام بين إنس وجان ، ووقعت بين الفريقين منافسة يريد بها الله في الواقع للبناء والتكوين .

إن الحياة ليست هينة ، ولا يمكن أن تكون هينة ، ولا يريد بها الله سبحانه أن تقف عند العرض الأدنى في كل بناء وتكوين ، ولكنها يمكن أن تكون هينة بقليل من التفكير . وقد أوقع الله الفريقين في مأزق ، وأراد أن يتخلص كل واحد منهما من مأزقه بتفكير أو حسن تفكير .

إن اختبار آدم من هذه الناحية كان طفيفا ، إذ لم يطالبه سبحانه باختراع في اللاسلكي ، أو يبين له رأيا حديثا في أسس التربية ، ونظم الاقتصاد ، وإن الأمر في ذلك لا يعدو التفكير في الكفاف .

هذا ما كان من أمر هذا الصراع . من حيث المبدأ ، ومن حيث أنه وسيلة إلى الحياة ، ومن حيث أنه نظر إلى المستقبل ، ولقد أخطأ فيه الشيطان هو أيضا في حق نفسه ، وفي المبدأ من حيث أنه نهج وسياسة ؛ إذ لم يحتفظ له بشيء في رد الخطاب ، يمكن أن يرجع به إلى نفسه أو إلى ربه إذا نهضت الإنسانية وجد فيها نبوغ ، وتلك أيضا صلافة توهم بها السياسة في كل شيء ، في نفس أو أسرة ، أو في رئاسة وقيادة .

إن خضوع رئيس لمرءوس أمر واجب في بعض الأحيان ، وإلى حد ما ...
إذا رأى فيه نبوغا يمكن أن يستغله لصالح مدرسة أو مصنع . الخ وإن ميدان المنافسة في كل شيء يجب أن يسوده شيء من الحرية بين الأفراد ليكون النهوض عاما والتجديد شاملا ، وحتى لا يتسلل البعض تحت تأثير حسن في رأى ، أو جهود في مبدأ .

إن الشيطان أو ما يسمى بشيطان ما عدل عن رأيه ، وما صرح بتعديل
في موقفه ، وإنما ذلك يعرف بقرائن الأحوال ، وأهل ذلك سياسة تلتجج في
بعض الأحيان . على أنه لا بد وأن يكون مع ذلك قد ساد البعض شيء من
الحرية ، آمن في ظله من آمن من الجان عند بعث ما . . . أو تجديد . أما هو
فربما احتفظ لنفسه بالعبارة من الإنسان .

وتقد كان الجان على استعداد أن يلتفتوا الإنسانية شيئا من التجديد ،
ولكن الله سبحانه منعمنا من ذلك ، وألقى في نفوسنا كثيرا من العداوة نحوهم
لنصل إلى ذلك بأنفسنا فيكون له أثر في تكوين العقل وتربية النفس . وليقطع
عليهم دوننا باب مجاملة ربما أخذوه سلاحا علينا ، أو جعلوه طريق من تضعف
أمامه بكل تأكيد نفوسنا واعتزازنا بإنسانيتنا . . . « أما هذا الاستعداد فتى
وإلى أى مدى كان . . . كان عند نشوء عقليات أمكن أن تتصل بالسماء . نشأ
عنها تنجيم . أو عرافة . أو سحر تطور كل إلى تنبؤ أو طب أو إخبار بغيب ،
وكلها قد نشأت في أحضانها رسالات وأدب وشعر وعلوم » . قال تعالى :
« وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَاقِيََنَّكَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ
الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . . . وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ
فَوَجَدْنَاهَا مَلَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشَهَبًا ، وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ،
فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ، وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي
الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا . . . أَى بلوغا إلى الحقيقة بمد رشد ونضوج
فى العقل — . . . قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ لِيَجْعَلَ لَهُ رَبِّي أَمَدًا .
عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ، فَإِنَّهُ
يَسْأَلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا » .

تردد العقلية بين الهدم والبناء

وبعد . . . سياسة تلقين تنازعها تضليل . يضيع بينهما استلهام بيت من شعر ، أو عزيمة من سحر !! فمتى يكون تلقين؟ . أو يجوز سياسة في نشر تعليم؟ . ومتى يباح تضليل؟ . ويتخذ سياسة لتدمير؟ .

إن الأرض لا تتصل بالسماء إلا عن علم . ومتى نبتت فيه نابتة لابن آدم من تكوينه واستنتاجه ! استحقت أن تنمو وتزدهر بوحى أو إلهام من السماء . هذا ومعرفة لتأليف بين عناصر الطبيعة لتكوين طلاء أو صناعة صابون ليست بأقل في قيمتها الصناعية من تكوين جملة أو تأليف كتاب .

وإننا حين نسائل أنفسنا... كيف اهتدى ابن آدم إلى الفكرة الأولى التي بنيت عليها صناعة الصابون . أو لم تزيل تلك المادة ما يصادفها من أقدار زيتية أو دهنية تستحيل إزالتها بغيرها أو بعنصر واحد من عناصرها لنالنا كثير من العجب . ولكنها في الواقع تجارب بنيت على تجارب ومشاهدات احتفظ لها بجانب رعاية من السماء . ولعل نوحا لم يتيسر له أن يبني سفينته إلا بعد أن عرف شيئا عن الثقل النوعي للأجسام . . ومناسبة بين تجويف ومقدار حمولة شأن كل استنتاج .

هذا ومعرفة في صناعة كانت أيسر على ابن آدم من حمل لواء معرفة نظرية أو علم عقلي . لوقوعها في تجاربه ، واستخلاصها من مشاهداته ، ولو أمكنه أن يأخذ معها قسطا يوازيها من العلوم العقلية عن تفكير واستنتاج ما تدخل أو تحكم في سياسته شيطان .

إن القدر النظري الذي كان يحاول أن يصل إليه الإنسان في تأسيس أسرة أو تربية نشء أو تكوين جماعة كان كثيراً ما يصاب بإخلاف من السماء . وإن الإنتاج الفكري في ذلك كان عرضة لتضليل مادام لم تحققه مشاهدة أو يصل العقل فيه إلى يقين .

هذا وتردد نظرية أو رأى بين طرفين مما اختلفت به الإنسانية . وشقيقت به الحياة . ومادام هناك إمهال في بناء ؛ ولو على جهل أو طرف ضعيف في رأى فأوسع بها سياسة تضليل لهدم أو تدمير ؛ لتصل الإنسانية إلى صواب « وَبَبَلُو كُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(١) » .

وإذا كان الإنسان لم يضع لبنة صالحة في بناء العقل فعلى أى أساس يستجدي له وحيا من السماء . وإذا كان هناك أفضلية أو مساجلة بين جنس و جنس فلم يكن توسع في سياسة تلقين .

وبعد فإلى أى مدى كان اعتراف الشيطان بسياسة التلقين .

لقد قلنا إن الله سبحانه أراد من آدم وابن آدم أن يصل إلى المعرفة بنفسه . وإذا تلكأ في فهم أوقعه في شيء من الحرج ، أو تركه ليوقع به شيطان ، ليستنتج ، وتترى ذا كرته على استنتاج ؛ ولينتهى سبحانه بهد من سياسة التلقين . وإنه سبحانه قد أخذ على نفسه ألا يلقن ابن آدم شيئاً إلا إذا وصل إلى شيء من المعرفة يصح أن يكون نواة لبناء جديد .

(١) أى تعودون . فيعود كل إلى تجاربه يوم القيامة ليعرف ما فيها من خطأ وما فيها من صواب ويحاول بأى طريقة حسب فطنته وذكائه واستمداده الشخصى أن يتخلص من هذه الأخطاء ليبنى لمستقبله على صحيح تجاربه .

ولقد كثر في القرآن الكريم آيات تحكيم الانسان أمثال قوله تعالى : « ثم يوم القيامة يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون » والواقع أنه لم يكن هناك تحكيم غير هذا . « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى مهاد » .

هذا ما فرضه الله على نفسه في تكوين رسالة ، أو نشر هداية وإنه سبحانه قد احتفظ لنفسه بالجانب الأقوى من هذا البناء في المعرفة ، وتترك الأذى لعالم أو ساحر ! . . . يصل فيه إلى شيء . أما ما دون ذلك فقد تركه ليمتخطه شيطان أو خارج على شيطان .

تلك سياسة أو حكمة في سياسة ، ومع ذلك فما اعترف به الشيطان وما تنازل بها عن ميدته .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى . . . أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

إن آدم حين عرف خطأه ، وحين رجع إلى ربه ، تلقى منه كلمات لا تعدو المبادئ الأولى لنظام الأسرة أو القبيلة ، أما إعداد الثوب ، وآنية الطعام فقد وصل إليه بنفسه بعد الحرج ، وإن ضالة هذا القدر الملقن مع كل رسالة لم تسمح للشيطان بالسكوت ، إذ كان يريد لها أيضا من إنتاجه لتصحح بها المساجلة عندما تلتقى المعرفتان يوم القيامة . وإلا فهو على حق في امتناعه عن تقديم شيء من الطاعة لآدم .

هذا وما دام ابن آدم يتعثر في طريقه إلى الحياة الصحيحة فالإحراج أمر يقره العقل ما دامت هناك مساجلة ؛ وما دام هناك غرض أسى في الحياة ، وما دام هناك نفاية لكل تجربة ؛ أو على الأقل لتسرع الإنسانية إلى التخلص

من أخطائها . وهذا خير من بقاء على قديم أو استرسال في ضلال .
إن إضلال شيطان لا يعدو أن يكون إخراجا لإنسان ما . . . وبقدر ما . . .
حسب حساسيته وشعوره في الأولى والآخرة ، وإن النفس كثيرا ما تصل إلى
الحقيقة عن طريق الخطأ أو الوقوع فيه . وإن تجارب الحياة كتلك التي نقيمها
في بوتقة أو أنبوبة اختبار . وقد تصل تجربة إلى نجاح وتحتاج أخرى إلى تغيير
خطأ في نسب أو أوضاع . وإننا لن نصل إلى هذه أو تلك إلا بعد نظر
ومشاهدة واعتبار .

لقد شاع على خطأ في الدين أن الشيطان يأخذ الإضلال على طول الطريق .
وذلك في الواقع لا يقره أى عقل . إنه ليس له إلا العثرة الثانية من ابن آدم
أما الأولى فمن حمايته أو انحلال في عزيمته . فإذا اهتدى وإلا فقد أظهره لربه
على عجز وسوء بصيرة أو أنه على الأقل لا يصح أن يسجد له ، أو أن يطاع .

« وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ . وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ
لِي . فَلَا تَلُمُونِي ، وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ،
إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ — أَيُّ بَمَا أَلِجْتُ إِلَيْهِ لِأَخْتَبِرْ ذَكَاءَكُمْ —
إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

إن الشيطان في الواقع لا يدخل إلى ابن آدم إلا حين يخطيء ، وإنه
سبحانه ليلتزم جانب الصمت ليعرف الخطيء صوابه من عثرته . وعثرة بعد
عثرة تصل العظة من النفس وتأخذ لها نهجا ما . . . صالحا في الحياة .

إنه سبحانه أعز من أن يصحح أخطاء الإنسانية يوما بعد يوم . وإنه سبحانه

لا يأخذ لنفسه إلا جانب الهداية من ابن آدم . وأما ما ذكر في آي القرآن من عداوة لشيطان إنما هي عبرة لابن آدم ليأخذ بها حذره في ثانية الوقائع . فإن أجدت ؛ ولو في عزم ، ومراجعة للنفس فعضة وهداية . وإلا فجمع لأشلاء كل تجربة تنتلهه سياسة هدم أو تدمير عند شيخوخة كل إقطاعية أو مملكة « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرًا نَأْتُرَفِيهَا ؛ فَفَسَقُوا فِيهَا ؛ فَحَقَّقْنَا لَهَا الْقَوْلَ فَذَمَّرْنَا لَهَا تَدْمِيرًا » .
إن سياسة شيطان ليست سياسة استقرار حتى يعترف بها من السماء ، بل سياسة تركين يمتاز بها مبدأ عن مبدأ ، وينفاوت بها رأى عن رأى ، لتختلف وجوه الأخذ به . وهي بعد سياسة خلق المشاكل ، ليصل العقل في حلها إلى شيء إن تنازلاً ما ... عن اعتزاز بجنسية مما اختلفت به الحياة العقلية في الأرض وفي السماء . وإنما السياسة مقصودة من كلا طرفين ؛ حتى إذا ضلت الحقيقة طريقها وجدت لها أنصاراً من هؤلاء أو هؤلاء عند تكوين المذاهب وتركيز الآراء .

* * *

و بعد . . . فلقد أمكن لهذه السياسة من جوانبها الثلاثة قبيل بعث نوح عليه السلام ، أو في القرن الأربعين قبل الميلاد أن تكون في العقلية شيئاً يسمى غنى وآخر يسمى فقراً تعددت بهما الأوساط . وأمكنها أن توجد فيها قوة تميز تفهم به شيئاً ما . . . يسمى خيراً وآخر يسمى شراً ، كما أمكنها أن تكون في النفس حباً لأسرة أو تعلقاً بقراية^(١) ، ووطن في خلية ما ، أو نوع من أنواع الحياة ، ونزوعاً إلى التخاص من ذلك في نسب أو هجرة .

(١) « ونادى نوح ربه . فقال : رب إن ابني من أهلي . وإن عندك الحق . وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح . » أى تركيز الإنسانية في بقعة واحدة من الأرض لا تصلح به الحياة وسيؤدى إلى فقر أو حرب عند زيادة العدد في السكان .

واقدم كانت تجارب الحياة^(١) لذلك الحين كثيراً ما تخطي أو تصيب . تخطي في تعدد حوادث الفرق ، أو تصيب في كشف مجاهل الطبيعة بشكل صح به استبدال وطن بوطن ، أو نعيم ببؤس ، أو قرابة بقرابة . وبين هذه وتلك استطاعت تلك السياسة ، أو ساعدت على أن ينال فريق نيلاً من فريق بلغة ما . . . في سباب أو مشاحنة . كما أمكنت في جانب ما . . . من جوانبها الثلاثة أن يقول البعض لنوح : « مَا نَرَاكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنَّ يَبَادُوا بِرَأْيِ وَمَا نَرَى ، لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » أي فيما تدعونه من كشف لمجاهل الأرض .

إن نوحاً كان يجيب في احتراس وفي مدى هذا الاكتشاف إذ يقول : « وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ . وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ — كما تقولون — لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ إِنَّا يَوْمًا تَبْتَلُهُمُ اللَّهُ خَيْرًا — أي لن يصلوا إلى أمنية في كشف مجاهل الأرض .

إن الله سبحانه ما أرسل نوحاً ليبنى سفينة فحسب ؛ بل ليساعد الإنسانية على تجنب الأخطار . ويعلمها كيف تضع نواة بناء فيما وراء البحار . وإن رسالته ما وقفت عند حمولة واحدة اسفينته كما نفيمه في الدين . وبفضله انتقلت الحياة من شواطئ الفرات إلى ضفاف النيل . وحين شرف الوادي ناداه ربه « أَنْ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا . وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ . وَعَلَىٰ أُمَّةٍ مِّنْ مَّعَكَ . وَأَعْمُرْ سَمْعَهُمْ . ثُمَّ كَسِبُوا مِنَّا عَذَابًا أَلِيمًا » .

وبعد . . . فهل اعترف الشيطان بسفينة نوح ؟! . . . كلا!! إنه لم يعترف بها ، لأنها أوحيت ، وأوحى تكوينها من السماء ، وإن جملة الاستهزاء التي

(١) أي حياة الصيد .

ألقيت عليه ، ليتراجع في بنائها انتقلت إلى سياسة ترغيب وترهيب من الجانبين في حملة كل فوج . ولو كان هناك إنتاج فكري أو لغوي يجيد به نوح فن الدعاية لآمن به كثير .

لقد نجح نوح نجاحا ما . . . وكان لكل خلية من خلاياه بقية ما زالت تؤثر بقاء على فقر إبقاء لقرابة أو جنوحا إلى كسل ، وإيهم ما كانوا إلا ليتحقق فيهم جانب الهدم لرسالته . هذا شأن كل رسالة . هدم وبناء . وبناء على بناء : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِيَّيْهِمْ . فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا ، لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ . ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ . فَأَنْجَيْنَاهُمْ . وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ » .

لقد كان نوح أقدر على فهم الحياة من آدم . وقد أمكنه أن يخلق فن الملاحظة ، ويقيمه على أساس استطاع به أن يقلل من حوادث الغرق . ولقد مد له في العمر حتى يبني المعرفة على أساس ولو في علم مشاهد الطبيعة وتقويم البلدان . وحين أتم رسالته كان قد تحقق للعقلية قسط من الآراء والأفكار عاشت عليه ؛ وقد تطور فيما بعد إلى عقائد في الدين . ومذاهب في الزواج . ومبادئ في طرق الكسب أو الأخذ بأسباب الحياة .

وبعد . . . فهذا صنيع أو بداية صنيع قدمه نوح لذرية آدم . وإن توالى الأيام ربما رد هذا الصنيع لذرية نوح . وربما انتخبت الحياة منهما نسلا صالحا للبناء والتعمير . وربما انتقلت مع هؤلاء وهؤلاء بالوراثة صناعة نحت لآدم . وبناء سفن لنوح . فظهرت الأولى عند قدامى المصريين ، وظهرت عليها قوميتهم وظهرت الثانية على ضفاف الشام . وكانت نواة للفينيقيين . هذا بعد امتزاج الاثنين في معرفة أو مصاهرة .

النشأة العلية

و بعد فعل سياسة نوح قد أنتجت . ولعل خلاياه قد نمت وتحوّلت إلى إقطاعات وممالك . ولعل الإنسانية قد برز فيها من يصلح للرئاسة . ولعل حياة علمية نشأت ، وأنتجت شخصيات ، ولكن إلى أى حد كانت هذه الحياة أو تلك العقليات . ! إن ذلك شيء لم يقصه لنا التاريخ . ذلك التاريخ أقصد به تاريخ العلوم . ولعلنى أقصد بذلك أن أدون للعلوم نشأة ، ولتكوّن منها بداية .

ولئن علم الله آدم الأسماء كلها فما امتنع أن يمد نوحا وأعوان نوح عن طريق الإلهام أو التلقين شيئا عن بواعث الحياة من ولادة واستنبات ، ولعل أول العلوم نشأة علم مشاهد الطبيعة وفن إقامة القرى والبلدان ، ولعلمهم قد فهموا شيئا عن هندسة المباني وتحديد المساحات . وربما قد فهموا شيئا عن الحقوق والواجبات . وإن ذلك كله من حيث مقدار العقلية ما كان يعدو أن يكون شبيها بعقلية تلميذ أو رحلة تلميذ إلى مزرعة أو نموذج من القرى .

ومن قبل كانت حوادث الفرق قد أوجدت في النفس فرقا بين حياة وموت احتفظ به لمن فقد الحياة بشيء من الحب أو نوع من أنواع الطاعة أو العبادة إذا كان عاهل أسرة أو رب جماعة .

وإذا خشيت جماعة أن تضيع من الذاكرة ملامح عاهلها وتقسيم وجهه نسجتها في صورة من الحجارة ؛ ثم قدمت له شيئا من الطاعة ، أو العبادة اعترافا بما قدم لها من خدمة ؛ واحتفاظا بما له من شخصية وقرابة .

ولقد كانت صناعة النحت مازالت في أيديهم ، انتقلت إليهم بالوراثة عن آدم حين كان يتخذ آنته من الحجارة . هذا إلى أن القوم كانوا قد مروا على فن الحياكة والتقييد ؛ إذ كانوا يعمدون إليه كثيرا ليكون أداة تعبير إذا جمدت في أيديهم ، وعلى ألسنتهم ألفاظ اللغة . وهذا أو ذاك مما جعل المصريين يبرعون في التصوير وصناعة التماثيل . وتدعيم المعابد والعروح .

ولقد كانت صناعة تماثيل أسبق إلى العقلية من أي فن آخر . وما زال هذا الفن يشغل حيزا كبيرا من عقلية الطفل . ولقد كنا على غفوة نلهو به أثناء الطفولة وكنا نقيم به تماثالا لطير أو جمل . وكنا نتخذها من الطين . وقد أدخلت حديثا فقط في نظام المدارس لاختبار ذكاء الطفولة ، وإعطائها شيئا من المراتب عليها تنتجى لها فنا إن عجزت عن مزاولة العلوم .

ولقد كانت وما زالت نشأة فنون أسبق إلى العقل من نشأة العلوم . وكان مجال السبق فيها وفي الحضارة واسعا عند قدامى المصريين ، مما دعى إلى تعجيز أو تبطؤ ، فيهما على يد كثير من البعوث ؛ حتى يأخذ العقل بنصيب من الفلسفة والعلوم . وحتى يُرغم على إجادة التفكير فيما وراء الطبيعة .

هذا ما يمكن أن نقوله عن الحياة العلمية إذ ذاك ، كيف نشأت . . . وفي أيدينا إلى أي حد وصلت . أما الحياة الروحية فيمكن أن نخوض إليها طريقا وفي أيدينا من الحياة العلمية غبار .

لقد سارت الحياة الروحية إلى التكوين مع النشأة العلمية ، وارتبطت بها ارتباطا السبب بالسبب ؛ وسار معهما الوحي كعامل تصديق بعد المشاهدة والاستنتاج ، أو المقارنة بين قديم وجديد . وإذا قلنا كل جديد لدى هذه

العقلية فيمننا أثره في النفس عند المشاهدة ، أو بعد المقارنة ؛ وعادنا مدى ذلك في تثبيت دعاتم الحياة الروحية والعلمية في النفوس .

ليست الحياة الروحية قديما كما نفهمه نحن من أنهم كانوا يعبدون إلها واحدا ثم نكصوا عنه إلى عبادة تماثيل أو حب أصنام ، بل الأمر بالعكس : وإنهم ما وصلوا إلى التوحيد إلا عن هذه العبادة . هذا للامة . أما الخاصة وطبقة الرؤساء فقد كانوا يفهمون التوحيد كما نفهمه نحن .

وتقد كان الفرق شاسعا بين عقلية رئيس وفرد ما . . . من أفراد العامة . وكان مدار التعليم أو سياسته ، أو انتقال فرد من عامية إلى تعليم ورئاسة يتوقف على نياله قسطا من المعرفة يؤهله ؛ أو يصل به إلى فهم شيء عن ذلك التوحيد . وقد كان الرؤساء كثيرا ما يضمنون به لتبقى فيهم رئاسة أو سيطرة . وقد كانت العامة تقدم لكل رئيس شيئا من الطاعة أو العبادة ؛ لاعلى أنه إله كما فهمناه عنهم ، بل على أنه وسيط إله يمكن أن يتقبل عنهم حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم . وتلك هي الوثنية ، أو الإثنية في العبادة ، عبادة من اثنين أو طرفين لطرف آخر مجهول ، أو عبادة لاثنين أحدهما هذا الطرف المجهول . فإذا عجزت العامة عن فهم هذا الطرف المجهول في أثر من آثار قدرته قصرت عبادتها على هذا الوسيط ؛ على أنها لم تكن عبادة بالمعنى المعروف ؛ إذ لم تكن تتعدى الطاعة والخضوع ، وما بأيدينا منها هو تقويمها الأخير .

هذا . . . أما ارتباط أسباب بين سماء وأرض فذلك لم يفهمه إلا القليل ، وما كان ذلك لشيء إلا لأن اللغة لم تكن أداة تفاهم بالمعنى الصحيح ، كما لم تكن هناك لغة عبرية كما يُظن لإبراهيم . وما نزل عليه منها لا يتعدى ألفاظا أساسية في أصل اللغة ، وفي ضروريات الحياة من سمع وبصر وأكل وشرب

وذهب وحبى . . . وكان المعنى يبني على حرف فقط أو حرفين من هذه الألفاظ^(١) . . الخ .

لذلك كثيرا ما كان يعجز هذا الوسيط عن تأدية تعبير ، أو تبليغ معنى إلى عقلية العامة عن طريق اللغة . وكثيرا ما كانت تتصادم عقلية عامة ارتقت بعقلية جاهل أو رئيس . وكثيرا ما كان يقع سوء تفاهم بين الفريقين .

وقد كانت رسالة كل جاهل أو رئيس كثيرا ما تقف عند أقوال مأثورة عنهم ، تلك هي : « نَحَالُ عَلَى مَنْ يَفْنَى أَنْ يُزِيلَ النُّقَابَ عَمَّنْ لَا يَفْنَى » . فإذا أدى هذا الجاهل هذا المعنى في أى عبارة توقف خصمه عن خوض سبيل ما . . إلى المعرفة مكتميا أو مقتنعا بما وصل إليه من زاد علمي ، وإن لم يصل به بعد إلى درجة التحقيق . لذلك كثيرا ما كانت تحشوه الخرافات .

هذا وإذا كانت العقلية في أى عصر مجموعة من معارف العصر الأولى بعد الزيادة والتنقيح فأى عقلية كانت لهؤلاء ؛ وأى عصر أو معرفة سبقتهم حتى نحكم بأنهم كانت لهم عقلية تفهم التوحيد . إن ذلك كان مداره النبوغ عند البعض ؛ وعند الآخرين كان يقف عند عقلية ساذجة ؛ لا تزيد على أن تكون كهقولنا زمن الطفولة أو المراهقة .

إن طفلا ما . . . إذا سأل أباه عن شيء وجد بالمنزل ، وقال بلغته « مين جابو » ، فأجابه أبوه على سبيل المداعبة : « جاو رينا » إن الطفل لا بد سيصدق ، ولكن بعد يوم سيسأل : ولم لم يزرنا ، أو لم لم أره عند تقديم هذا الشيء ، أو تلك الهدية . إن الوالد إذا عجز عن الإجابة ، وشبهنا عجزه بانقطاع

(١) ستفرد لذلك موضوعا خاصاً

الوحي أو الإلهام بموت نبي أو رئيس أمكننا أن نفهم مقدار الخيرة التي كان يقع فيها هؤلاء وهؤلاء ، وإن خليفة نبي أو رئيس إن لم يكن قد أعد لذلك عدته ضلت العقلية ورجعت إلى القديم ، أو تناسته لتلهم في أحضان الطبيعة ، كما يلهم الأطفال ؛ أو تلهم في صناعة نموذج لآنية أو تمثال .

إن العقلية كان لا بد لها من إنتاج علمي أكثر فأكثر حتى تنتقل بسرعة من محسوس إلى معقول ؛ وحتى تترتب فيها قوة خيال تمكنها من ربط السبب بالسبب ، أو الوجود بالوجود ، ولكن الأمر كان من ذلك على نقیض ؛ فأبطأ بها المسير ، ووقفت بمعرفتها عند دائرة المحسوس .

هذه هي العبادة الأولى ، أو الخضوع الأول للإنسانية . خضوع كخضوع الطفولة زمن المراهقة ، وعقلية كهقليتها ، وليس لنا أن ننكرها عليهم ، إلا إذا استمرأها البعض ، وتشبث بها لفرض ما ؛ حين تتجدد المعلومات ، وترتقي عقول من العامة ، وتفهم أن تلك العبادة في غير موضعها ؛ أو أنها يجب أن تنقل إلى حالة أرقى . . . وهذا موضع كل رسالة ، وإنه سبحانه « أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

كيف نشأت عقائد في الدين

لقد جاء القرن الثلاثون قبل الميلاد والقوم لا يعرفون رابطة بين سماء وأرض سوى حركة الشمس الظاهرية ؛ وحركة الكواكب . أما المسيطر على هذه الحركة ، أو المنظم لها فما زال أمره ، أو أمر توضيح قدرته غامضا في عقلية عامة أو عقلية رئيس .

ولقد كانت الحياة أو ما زالت مركزة في أسرة ، أو قبيلة . ولقد كانت أيضا أو ما زالت صلة بين حاكم ومحكوم مبنية على قرابة أو ما يشبه قرابة ؛ لذلك لم يكن غريبا عليهم أن يتعلقوا برئيس قبيد أو طواه الموت ؛ ولم يكن غريبا أن يحتفظوا بصورته في تمثال^(١) ؛ يتذكرون به ماضيه معهم ؛ وحسن صنيعه فيهم . وربما وصلت هذه الذكرى إلى حُب يقرب من العبادة أو الطاعة عند المقارنة بين رئيس مضى ورئيس ؛ وربما أنكرها البعض على البعض عند تغطية عمل رئيس على عمل رئيس . وربما رآها البعض أن الأولى بها من على قيد الحياة ؛ أو من يستطيع أن يسدل على الأسرة شيئا من النعيم . أو من ستهبه الأيام للمستقبل . لهذا أو ذاك بقي القوم في حيرة من أمر دينهم وعقائدهم .

على أننا إذا حللنا كلمة « آشور^(٢) » تحليلا لغويا ، نجد أنها تقرب من لفظ

(١) قال تعالى « وقال : أي إبراهيم — إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض . ويلعن بعضهم بعضا » .
(٢) إله عبد لذلك الحين .

«آزر»^(١)، ومن لفظ «أسرة»^(٢)، ثم نجد «الشين» قد تطور في النطق، وفي بعض الألفاظ إلى حاء أو خاء، وهذا أو ذلك يدلنا على أن كلمة آشور، أو الآشورية كان يراد بها معنى التحوير في العبادة، أو الآخروية في الحياة؛ وعدم التمسك بالماضي، أو التطلع إلى نجاة في الأبناء لتستطيع كل أسرة أن تثبت بهم مجد الآباء.

وإننا إذا تصفحنا التاريخ بعد إبراهيم وبنوة إبراهيم نجد أقواما في شمال دجلة والفرات عبدوا إلهما يسمى «أنا ليل» . وتحليل هذا اللفظ تحليلا لغويا نجده كإسرائيل وإسماعيل؛ ولعله يراد به نيل الله وعطاؤه كما يراد بإسماعيل سمع الله، وإسرائيل نور الله أو هدايته ومؤازرته . ولعل أنا ليل هذا سبط من أسباط إبراهيم . ولعله أفاض على الإنسانية شيئا من النعيم أمكنه أن يخلد به ذكره في نفوس القوم . وهذا يدلنا على أن الحياة لذلك العهد؛ وفي أكبر مساحة من الأرض كانت لإبراهيم وبنوة إبراهيم . وأن إبراهيم ما كان في الوضع الذي فرضه له التاريخ .

ونقد يقص لنا هذا التاريخ أن الحياة على ضفاف دجلة والفرات بعد حين كانت في شدة . وكثيرا ما نشبت الحروب بين أرباب الأسر والإقطاعات من أجل التاج . أما ذلك التاج فلا اعتقد أنه أكثر من المقطع «أل» أو «إيل» يضاف إلى اسم الغالب كما في السمومل . أي سماء الله ورحمته . وصمويل أي سكوته عندما يدهم الأمر ويعظم الخطب . وإننا إذا حللنا هذا المقطع «إيل» تحليلا لغويا نجده القدر الفكري أو اللغوي الذي وصلت إليه الإنسانية في

(١) آزر هو أبو إبراهيم .

(٢) لمقاربة بين السين والشين والزاي في وضع اللفظ .

معنى التوحيد ، ولقد بقي اسم الله عند البعض حتى في اليهود القريبة من الإسلام وقد جاء في المأثور عن أبي بكر الصديق حين أنكر على مسيامة نبوة ، وحين سألهم عن أسجاعه أنه قال لهم : « إِنَّ ذَلِكَ مَا يَقُولُهُ إِنْ وَلَا بَرٌّ » . ولعل هؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُودُ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ (١) فَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ؛ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . »

ولقد بحث إبراهيم والعقلية تتنازعها آراء ومبادئ تحتاج إلى تصفية أو تركيز ، إذ وجد أقواما يفهمون الطرف المجهول الحركة الظاهرية للكواكب ؛ وآخرين ما زالوا يعكفون على أصنام لهم وإن تقادمت بها اليهود . ومن بين هؤلاء وهؤلاء بعضا يريد الحياة والتجديد ؛ وإنهم جميعا ما زالوا على سداجة في العبادة ومقدار الحجة . وإن إبراهيم أيضا كان على سداجة في فهم معنى التوحيد حين عبد الكواكب ، وحين راجع نفسه فيها ، ولكنه كان أبلغ حجة ، وأقدر فهما حين أوجد لها في عقليته خاتما ، وحين عارض القوم في عبادة تماثيل ؛ وإن القوم كانوا يفهمون أنهم على سداجة حين رجعوا إلى أنفسهم فقالوا بكم أنتم الظالمون ، وربما كانوا يفهمون أن العبادة يجب أن تقدم لأشور . إنه مجهول أو إنسان منمنظر ، ستحققه الأيام ؛ أو ستمخض عنه الحوادث ، أو ستصل الإنسانية إلى فهمه بعد حين . وإن إبراهيم ربما كان من حججه معهم أن قال لهم ... « إِنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي أَيْضًا قَدَّمَات ، وَإِذَا فَطَّيْعَ آخَرَ . أَوْ نَعْبُدُ أَشُورَ » .

(١) يراد بهذا الحرف حرف التعريف وهو أل . وستوضح كيف تدرج إلى لفظ

الجملة أي « الله » في باب خاص باللغة .

إن إبراهيم لا يقصد إلهًا بكلمة آشور ، وأعله يريد ، إن ساعدناه على أداء المنطق أن يقول لهم : إن الحياة في تجدد ، والطاعة لمن يولد من نواحي الأسرة أو القبيلة أو الإنسانية عامة ، وهذا نص قد دون له في شريعته ، وأُخِذَ عَنْهُ ، أَوْ أُوْخِذَ عَلَيْهِ بعد وفاته ، ووفاة من وليه من ذريته ، وكان موضع خلاف بين طبقة المفكرين ، وعلماء هذه الأجيال ، أما العامة فقد وقفت عقليتهم عند آشور على أنه إله وإنسان منتظر توهب له الحياة ، ولا يعتريه موت أو فناء . وأما هؤلاء المفكرون فما زالوا منه على خلاف ، أو من ناحيته في صمت مادامت العبادة لا يقصد بها قليل أو كثير سوى تنظيم المعاملات ، وأحوال الاجتماع .

وعلى كل فقد تمكن آشور من العقابية على ضفاف بابل في عيد إبراهيم ، وبعد إبراهيم ، وأمكن أن يخلص القوم من عبادة الماضي ، أو التمسك بالذكريات . لذلك أثر عنهم عدم الاعتناء بموتاهم ؛ إذ كانوا يرمون جثثهم طعمة لوحش أو طير . وهذا مبدأ توضحية وفداء عُرف به إبراهيم حين همّ بذبح ابنه إسماعيل ، وحين فهم أن شريعته ، أو فكرته في الحياة لا يمكن أن تقوم إلا على فداء . وما زال إبراهيم يُجَدُّ في الحياة حتى أقام إمبراطورية آشور . وحين دون أحد المؤرخين عن رجالها أنهم كانوا لا يعترفون بالآخرة ؛ ولا يرجون فيها حساباً بسبب إهمالهم لموتاهم كان يدون خطأ في التاريخ ؛ وأعله رأى مستشرق متشبع بفكرة قدامى المصريين في عودة الروح .

هذه عقيدة أو ناحية من عقيدة : تؤثر المستقبل ، وتتطلع إلى كل جديد ؛ وما زالت في كل عصر تنتظر آشور ؛ لذلك كلما جد جديد من عطاء

التاريخ ، ووقع في قبضة الموت تركوه لينظروا غيره ؛ لذلك لم يعرف عنهم تشييد معابد ، أو اعتناء بقبور .

وحيثما كان إبراهيم يأخذ القوم بهذه العقيدة ؛ كانت بينهم فئة تؤمن بالمآضي ؛ وتستند عليه ؛ وتؤيده بعودة الروح .

وقد كان إبراهيم من قبل — وحين أراد أن يدعّم أركان دولته على شيء من التضحية ضد معانديه ، أو من لم يستطيعوا أن يفهموه — قد هم بذبح ابنه إسماعيل ليرى فيه من ربّه كيف تعاد الروح إلى الجسد ، ولكنه تراجع تحت تأثير من أنصاره مؤثرين تلك في حيوان ، وحينئذ قال لربّه : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ : أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ . قَالَ : بَلَى . وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنُّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ . فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ؛ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا . وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » وحين أصبحت تلك له آية ، اطمأنت تلك الفئة إلى مذهبها في العبادة ، ولكنها كانت بعده موضع فتنة لا تقل عن فتنة الخوارج في الإسلام .

لقد فهم العامة ، وتحققوا عودة الروح إلى الجسد ؛ ولكنهم اختلفوا أتعاد إلى جسم الدنيا أم إلى جسم جديد في الآخرة . وما كان لإبراهيم لو كان على قيد الحياة ، والراسخين في العلم من بعده أن يدينوا بالآولى ؛ وإن كانت من نصيب آخرين .

أقد فكر هؤلاء في التوفيق بين ماضٍ وجديد . ورأوا أن يحتفظوا للروح بجسد الدنيا . حتى لا يقول لهم أحد كما قال لهم إبراهيم من قبل : « فَأَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ » . وحينئذ تسابقوا لتدعيم فن التخنيط ؛ وكانوا من قبل قد فهموه أو شبهوا منه في تخفيف السمك ، أو تخنيطه . ولما تم لهم ذلك

أصبحت عودة الروح عقيدة أو ناحية من عقيدة ، واختصت بها فيما بعد فئة من ذرية إبراهيم عاشت مع خلاصة من ذرية نوح على ضفاف النيل قبل أن يعرف به نظام الأسرات بكثير . ولكنهما ما كانا يعيشان على وئام : وما لبث أن انقسم بهما الوادى ؛ فاختصت تلك الفئة بشماله ؛ وارتد الساميون إلى الجنوب . وقد سُمى التاريخ هذه الفئة بأنصاف الآلهة حينما اختلفوا هم أيضا على أنفسهم في تنافسهم من أجل التاج . وحينما عجزوا عن تحقيق شيء من دواعيه ومؤهلاته كان الواقع يؤذن برسالة ليوسف . وهذه الفئة هم الأرباب المنشقون الذين أفتى فيهم بقوله : « يَا صَاحِبِ السِّجْنِ : أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ لِّىَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ ، وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . . . » .

و بعد . . . فهذه نواة العبادة عند قدامى المصريين . عبادة لحفظ ذكريات على النقيض من عبادة آشور . وبين هذه وتلك كانت تلك التي تختص بمقطعين في التسمية أحدهما لله كما فى إسماعيل وإسرائيل ؛ والآخر كانت أقرب إلى التوحيد عند العامة من هاتين .

هذه هى الحياة الروحية إلى ما قبل القرن العشرين قبل الميلاد . وقد كانت الحياة السياسية ، والأحوال الاجتماعية معها على وئام فى جميع بقاع المعمورة فى مصر وغير مصر . وإنما إذا وازنا لها بين حالتى نجاح ورسوب فإننا لا نستطيع أن نحكم لها بنجاح إلا فى نمط واحد فقط . ذلك النمط وهو الذى يحوطه شيء قليل أو كثير من الحكمة ، وضبط النفس . وهو الذى بقى لله مع الرعية بين بعث وبعث . واختص به الرؤساء أيا كانوا ، فى أى زمن ، وفى أى جيل .

إننا فى الواقع إذا حدثنا فى قديم أو حديث ، أو جودنا فى شأن رئيس ما . . .

أو زعيم قبيلة فإننا يجب أن نعتقد أنه كان على إلهام ما . . . من ربه ، أو على الأقل أنه ما اختير إلا لأن لديه شيئاً من الاستعداد للإصلاح والتنفيذ ؛ أما ما يثار حوله من غبار ، قليل أو كثير لإحراجه أو الاستبدال به . فذلك يرجع إلى مقدار ما عنده من ليونة وصبر في السياسة ، وربما كان ذلك لاختبار هذه أو ذاك فيه . وربما دفع المجادلون إلى جدالهم فيه بإلهام ليعدل موقفه ؛ أو يقع به الاستبدال . أما إذا تحدثنا عن شاملترار وبختنصر ، وسنخاريب . . . الخ فيجب أن نعتقد أنهم مختارون ، أو مسلطون لإصلاح الرعية ، وربطها بين حقوق وواجبات .

مبدأ الاختيار الرئاسية

لقد وصف الله الإنسانية بالجهل حين « خَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ». وحين استنكر خبثا فيهم أو عليهم بقوله تعالى : « أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ . أَلَيْسَ لَكُمُ الرِّجَالُ شَهْوَةٌ مِثْلَ ذَوِي النِّسَاءِ ؛ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » . ولقد سجله الله نقصا في الإنسانية ؛ لأنه يخالف الرجولة ويسير بالعكس مع تكوين الشخصية ؛ وفوق ذلك فهو يغاب الأنوثة في تسلسل الذرية والأعقاب ، كما يؤدي إلى الإشكال في أعضاء التناسل .

وهذا الخبث وإن أدى إلى اعوجاج في تسلسل الذرية بين أنوثة وذكرورة فهو كذلك يؤدي إلى اعوجاج في وراثة العلم والمعرفة .

إن بنوة ما بنوة أفكار قبل أن تكون بنوة أجسام ، وإن رجولة تخضع لهذا الخبث أو تقع تحت تأثيره تلقن بنوتها في الجنين جهلا وغباوة ؛ لذلك اتخذ له طريق تجنب منذ نشوء المعرفة حتى لا تبطل الإنسانية في نشوئها العقلي ، أو تتخلف بها الحضارة عن ارتقاء وتجديد .

إن لكل يوم جديده في المعرفة . ومعرفة البنوة حسب كل تجدد تأتي أرفع شأنًا من معرفة الأبوة مهما كانت . فإذا فرضناها — وهو الواقع —

(1) هذا الموضوع لأسجله كقانون أو مادة دستورية يقوم عليها اختيار موظف أو رئيس . بل أقصد به الناحية الإلهامية من السماء . وهو هو في كلتا ناحيتيه . ولقد كان لهذا الموضوع ناحية إيجابية كنتيجة لسياسة التعليم في كل عصر بعد أن أخذ بها تطبيقه في سياسة وظائف وموظفين .

جهلا وغباوة عند اقتراف هذا الإثم انتقلت بعامل الوراثة الفكرية في البنوة
جهلا وغباوة كذلك . وهذا بالطبع تبطىء لمعرفة الأبناء . وتوقيف لسنة
التقدم . واعوجاج أو أداة اعوجاج في تاريخ السياسة^(١) .

لقد كان كفى ما يلقى في الأرحام من غباوة ، وكان كفى عبثا على رجال
التعليم أن يخلصوا الأبناء من نوازع الأمومة التي انتقلت إليهم بالوراثة في
أصل تكوين الجنين .

إن مناط التعليم تربية المواهب في النشء على شيء من الاعتزاز
بالشخصية ؛ حتى يشعر أن له صفات مكتسبة يجب أن تصل به إلى رجولة ،
وأن له شأنا آخر غير شأن الأنوثة ، ووظيفة أخرى غير وظيفتها ، وأن له تعاليم
ونظما في الحياة غير نظم الأمومة ، وواجبات الأمومة .

إننا إذا وصلنا بالأنوثة إلى مثل ذلك أمكنا أن نفصل بين طباع
وطباع . طباع موروثة في بنت عن أبوة ؛ وأخرى في ابن عن أمومة ، وإننا
بذلك نكون قد حددنا لكل موقفه في الحياة .

إن عملا يسير بالتعليم على نمط سبى خبت ينكره العقل . ولا بقره دين
وإن عقلية تركز إليه لتدافع به عن كيائها يجب أن تقع تحت طائلة من
العقاب الطبيعي

إننا بعد أحوج ما نكون إلى رجال وشخصيات . وأحوج ما نكون
إلى زعماء وقادة .

(١) أمثلة ذلك كثيرة في التاريخ . وقد تكثر عندما تؤخذ الحال بانتقال ملكية من
أسرة إلى أسرة ، أو من فرد إلى فرد . . . الخ فتحدث أزمات ومصادمات حتى يجد هذا
المبدأ تطبيقا بقره العقل . ويعلمش إليه التاريخ .

إن ستارا يسدل على هذا الخبث لا يكفي لتكوين رجولة . وإن من يقع
فريسة له لا يمكن أن يأتي بذرية تصلح للبقاء ، أو تصح أن تكون أصولا
صالحة لتوريث .

لهذا لم يكتب لقوم يونس ولا لدرية يونس بقاء لتعمير . « فَأَوْلَا كَانَتْ
قَرِيْبَةً آمَنْتُ ؛ فَنَنْعَمُهَا إِيمَانُهَا ؛ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » . « فَاسْتَفْتِهِمُ الرَّبُّ بِكَ
الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الْبَنُونَ » .

وإذا كانت الرئاسة قديما وعلى قلة مدارس ، أو أشبه بمدارس فالحياة
إذا كانت أحوج ما تكون إلى فصل بين هؤلاء وهؤلاء ، أو تجنّب يقوم
مفام سياسة التعليم .

والاختيار لرئاسة لا يكون إلا عن علم ، والاستعداد لنيل إجازة فيه ،
لا يكون إلا بعد ترفع عن مثل هذه الدنيا . وعلم لا يواتى المرء بحكمة وكياسة
فأهون به في منصب أو رئاسة ؛ لذلك كان عزيزا عليه سبحانه أن تكون
الهمة فيه مشاعا للجميع . « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا . . . » « وَلَوْ طَآءَنِيَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرِيْبَةِ
الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثِ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْتَمِينِ » .

والحكمة هي الرئاسة أو الاستعداد لها إن احتاجت إلى شرح أو توضيح .
ولا يلهم الله إنسانا علما وحكمة إلا إذا ابتعد عن هذا الخبث ، ولم يقع تحت
تأثيره في صحبة أو مجلس . لذلك نرى العزة ومقومات الشخصية تستمر وراثه في
أبناء القادة والزعماء وسلالة الملوك . أما بنوة العلماء فقد يتعرج بهم الطريق ،

لاختلاط آبائهم بالعامية ، واعترافهم به ولو مداراة لهم ليدفعوا عن أنفسهم
تقاليدهم الحقيقية الموروثة في هذا الشأن .

اعلنا نفهم بعد هذا مدى اضطراب العقلية في أخريات رسالة نوح
ليتداولها لوط بالتصنيفية والغربلة للأفكار . واعلنا نفهم أن رسالة لوط كانت
رسالة علم وشخصية ، وعليها قام الفصل بين حسن وقبيح ، وبها أقيمت
الحوارج بين شرق وغرب باعتبار موطن الرسالة ؛ لا باعتبارى كعصرى . واعلنا
نفهم شيوع الجمال في أخريات رسالات بنوة إبراهيم ؛ ذلك الذى دعاهم إلى
عبادة الأنوثة في « إشتار » إلهة الحب والجمال . واعلها كانت أخت آشور ؛
أو اتخذت للوصول بها إليه .

هذا وقد كان الهند وما وراء الهند من قديم مهبطا للقبح ، والجهل ،
والمعترف بهذا الخبث بعامل الطرد بعد الغريبة عند كل بعث . أو التجنيب
الإلهامى تحت نوازع طلب العيش . وما كان هذا الجانب لتقام به حضارة ،
أو بعث ، أو ملكية يعترف بها التاريخ إلا ما أخذوه بعد كل طرد أو
تجنيب . واعلمهم كانوا يأخذون معهم جزءاً من الدرارى عن طريق السبي ؛
حتى صلح أن يكون بقايا ، أو أصولاً لهذه البقايا التى كانت منها هذه الشعوب .
واقدر يدون التاريخ على خطأ أن ذلك ؛ أو بعضاً منه كان انقساماً للجنسية ؛
أو العقلية بين سامية وآرية . والواقع أنه لا أساس لهذه التسمية على هذا
النحو ؛ أو أنها تسمية تحتاج إلى تعديل ؛ إذ الآريون فى الحقيقة هم الطبقة
المتعاملة المصاحبة لكل جيل ؛ وهم الذين أخذوا على عاتقهم ترقية اللغة إنشاء
وكتابة ؛ وهم الذين كان يقع منهم أو فيهم هذا الطرد لهذا الخبث ، وكانوا أشبه
بطبقة الكتاب فى كل جيل ؛ وإن تنازلوا فبمعلى المسكاتب ؛ لذلك كانت

لشأنهم أقوم وأعز مادة؛ وهذا ما حدى بالمؤرخ إلى هذا التقسيم . واللفظ في كل لغة من أرى ، أو أور . وإن تنوع فإنه قرأ ونظر . . . وقد يسمى به عضو التذكير « أير » .

وانقد كانت تصنيفيتهم الأخيرة على يد نبيهم « زرادشت » وبعده على يد أنصاره . أما تسمية جزء من الجنسية أو ناحية من العقلية على طول الطريق بسامية خطأ لا يقره العقل ولا يعترف به قانون التوريت .

إننا جميعا لسنا أبناء نوح ، ولا أبناء سام بن نوح . إن لكل نبي ذرية كما كان ولا يزال لمحمد ذرية ، وإن أقدر ذرية على البقاء من ترث عن الجدود العريقة أكثر صفاتها ، وما كان لها من طباع .

هذا وإذا بعث نبي بين قوم فهم بين حثالة أخذت الحياة من اعوجاجها ، وأشلاء وقف بهم التوريت ؛ ليتحقق فيهم جانب الهدم لرسالته ، وبين جماعة مرثهم الدهر ؛ ليكونوا أطوع في البقاء ؛ وأصلح لإصلاح الإنسانية . وهؤلاء وهؤلاء ذريات لبؤات سابقة عليه . وفي ظل هذا الإصلاح تنمو ذرية كل نبي جديد .

هذا . . . وإذا كنا : أو ما زلنا ساميين فأين ذرية إسحاق وموسى وإبراهيم . . . الخ .

إن نظام الحياة لا يمكن أن يحل عظاما من عظام التاريخ عن تحمل جزء من أعبائها بعد موته في ذرية له ؛ قصداً لتعمير ، أو إتماماً لرسالته في الحياة .

إن الآريين على هذا الضوء ذرية لوط ، وإنهم بعملهم هذا قد أمموا رسالة جددهم في تجنيب ، أو في نشر معرفة وتعليم . وإن التاريخ يخطئ حين يدعى (٤ - البعث)

أنهم كانوا لا يعرفون الكتابة ؛ إذ لم يحتفظ لهم فيها بأثر ، وإن ذلك لا يصح أن يكون علة ؛ إذ القوم كانوا على دين آشور ؛ وإن آشور ما كان يرضى للماضي بتدوين . ولقد كانوا في خدمة مملكته ، في دورها الأول والثاني ، وكانوا في ذلك أشبه بالفرس مع العباسيين .

ولقد كانت الآريين ناحية إيجابية مع سياسة التعليم في خلق رئاسات استطاعت أن تركز الحياة في أسر ، وجماعات ، وقبائل حول دجلة والفرات ، وفيما وراء النهرين .

ولقد استطاعت هذه الرئاسات أن تحتفظ لنفسها بناحية تربية أوسياسية في خضوع ، أو قبول للاستشارة على العكس من سياسة فرعون ؛ إذ كانت تمتاز بالكبر ، والإسراف في القول من غير حيطة .

وقد كان الله سبحانه كثيرا ما يؤاخذ فرعون حتى لا يجره هذا الكبر إلى تآله ؛ لضعف الحياة الروحية إذ ذاك ؛ وحتى يجعل للاستشارة جانبا في سياسته .

نشأة التحريم وعلم الفلك

لقد كان لكل نبيٍّ أو رسول فكرة في الحياة : تتوارثها ذريته ؛ وتنمو معهم ؛ حتى يمتازوا بها ؛ وتمتاز بهم الحياة العقلية ، في عصر ما من عصر التاريخ ، وإننا قد وضعنا ذلك ، أو بعضا منه في رسالة نوح أو لوط . أما إبراهيم فلعلنا نهتدي بعد . . . إلى ربط بين عقليته وشيء من أحداث التاريخ .

إن إبراهيم كان رسول سياسة وجدل ؛ كما كان نبيٍّ علم ونظر ؛ ولقد كان كثيرا ما يستلهم السماء ؛ على يجد خبرا ؛ أو يصل إلى غيب . ولقد خلف ذرية صلحت بهم السياسة ؛ أو كانوا فيها على وئام إلى حين ، وحين اشتد بينهم نزاع على ملكية فسدت تلك القرابة ، واكتفى البعض ؛ أو تلهى عن الملكية بمداومة النظر ، ومزاولة المعرفة عن طريق الاستلهام ، مكتفيا بتربية حيوان ، أو رعى ماشية . واهل هذا البعض وهو الواقع كان بنوة عمات لبنوة إسحاق وإسماعيل .

لقد نال الطرد أول ما نال بقية من أسرة « أور كاجينا »^(١) وكانت قد نالت قسما من التعليم على يد الآريين . وبعد تتابع الأحداث في السهول والأودية كان لكل أسرة بقية كتلك . وهؤلاء وهؤلاء ما راق لهم إقامة

(١) لفظ « أور كاجينا » عند تحليله نجده يتركب من « أور » فالراء فيه معنى الرجولة ، والواو لجماعة الإخوة والمقطع بأ كمله بمعنى التعليم الحاس بالذكور . أما الكاف فللمنو والكبر . والجيم للمجىء والمقطع « نا » ضمير جماعة المتكلمين ، والمعنى الجملي لهذا اللفظ : الأخوة قد حصلوا على إجازة في العلم وجاءوا أو رجعوا إلينا .

إلا في أعالي الجبال ؛ ليقتربوا منها إلى السماء ؛ وليتسوا منها معارفهم في علم
الفلك ، أو التنجيم ^(١) . وربما اختارها البعض على غير هدى ، إذ لم يجدوا
فيها من وسائل العيش ما يفي بحاجاتهم ، لذلك تعددت منهم الإغارات على
الأودية حيناً بعد حين .

وقد ربّى هؤلاء الطيول وتعلموا الفروسية ، ليثأروا لأنفسهم ؛ أو ينالوا
شيئاً من ملك أبيهم إبراهيم ؛ وما زالوا ينحدرون إلى الشمال حتى وصلوا
إلى مقاطعة سميت بهم « أذربيجان » ^(٢) أي مؤازرة إذبي جان .

ولقد تخرج في تلك المقاطعة رجال أشداء ؛ لا يقفون عن البدو في شيء .
ولقد أصبحوا العون الثاني لكل نبوة تظهر بالجزيرة ؛ لاشتراك في مبدأ
الوحى والاستلهام ؛ أو مبدأ القناعة ؛ والوقوف في حياة الترف إلى حدٍ .
ولقد كان قسطهم من السماء يزداد كلما داوموا النظر ؛ أو راعوا مبدأ القناعة ؛
أو ازدادت عنايتهم بتربية خيل وماشية . ولقد استدرجهم ذلك إلى تعليم
الحيوان والطيور شيئاً من الاستجابة عند النداء بشكل يدعو إلى الإعجاب ؛
وبالشكل الذي نرا الآن من سحرة الطريق ، ولعلّ هؤلاء السحرة بقية
منهم ، ولعل ما نراه منهم بقية من تعاليمهم . وربما كان القدر الذي عليه الحيوان
من الفهم يرجع إلى تجارب هؤلاء ؛ وانتقل فيه بالوراثة ؛ حتى رأيناها بارزا في
القردة والحمام الزاجل .

إن التاريخ يشهد لهم بذلك مع ناقة ثمود ؛ إذ كانت مبصرة ؛ وعلى

(١) التنجيم هو الأخيار بالغيب ، وكان في الأصل ، وقبل أن تعبت به الشياطين
تمهيدا لكل رسالة .

(٢) هذا بصرف النظر عن تحديد النطق بالزاي ، إذ لم تكن قد تنوعت إذ ذاك
في التعبير .

هداية في توصيل الحائث بدون قائد أو مرشد ، وإن لطيفة نعرفها في الأدب
يرث عن هذه الناقاة . أما مسيئة وحمارة مسيئة التي تحدى به الإسلام فإننا
نعلم عنه الشيء الكثير .

إن تسمية ولايات اليمن بالشحر ، ومهرة ، وحمير ، وكذا تسمية العرب
لأنفسهم بجحش ، وكلاب ، وأسد ، وثعلبة ، يرجع إلى هؤلاء . وحين قسمت
النجوم إلى مجموعات : وحين سميت بدب أكبر وأصغر . . الخ ، كان كل
ذلك أثاراً لهم .

ونقد قلنا إن الجان كانوا على استعداد لمد الإنسانية بشيء من معارفهم ،
ولكن متى وإلى أي مدى . . . فهنا يمكن الإجابة على هذا السؤال .

إن اتصال الأرض بالسماء ليس مما يكال بالققران ، إنه في الواقع يحتاج
من الطرفين إلى كثير من الجهد ، والصبر ، ومداومة النظر ؛ حتى ينقطع المرء
عن أسباب الدنيا . وإنه أيضاً تتفاوت فيه أقدار الملائكة ؛ حتى لا يصادف
إخلاقاً من شيطان . فما كان منه من الإنسانية على ضعف استخلاصته الجان
لأنفسهم ، وما كان قويا بنيت عليه الرسالات .

هذا وإن الساحر إن لم يداوم على جلده وصبره ربما أصيب بخبل أو جنون ،
أو استهوته الشياطين . وإن الاستعداد لنزول وحى لا يقل في قوته ، وروعته
عن الاستعداد لحماية ملك نزل ساحة القتال . وقد وصف سبحانه كاتبنا الحائثين
بقوله في الأولى : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ^(١) » . وفي الثانية بقوله : « إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ
يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا » .

(١) أي زاد ضعفهم الجسمي لتمسكهم بالتماعة .

ولقد كان هؤلاء ذرية لما ردك، أو ماردش؛ أو هو زعيمهم — واللفظ معناه مارد، أو متمرن راش مبهما، أو أصاب شيئا من السماء — وقد نمت معارفهم الفلكية على يديه حتى سمو أضواء الكواكب باسمه ... ماردخ أو «المرخ» وقد بقيت هذه التسمية أو هذه الأحرف في كثير من الألفاظ الألمانية كما في «مارك» أو «الريخ» أو «الريش» أو «فردريك» .

ولقد برع هؤلاء القوم في التنجيم، وكانوا يستغلونه في استهواء العامة إلى مبادئهم، وكان يصاحبهم في كل ذلك جزء من السوماريين؛ يحمون لهم المدفوف، وعلى مزاميرهم ينشدون الأناشيد. وما زال فن الموسيقى مع الغناء ينمى وَيُجَزَّأ في مزامير حتى تولى هذه الفنون عنهم داود وسليمان قال تعالى: «وَأَقَدَّ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . وَخَشِيَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . . . الخ » . . .

أما الناحية السياسية أو الدينية لهؤلاء القوم فقد اعترف لهم بها آل عمران أو العموريون؛ وما زال أمرهم يقوى والعموريون في ضعف حتى انتهزوها فرصة، واستولوا على الأودية والسهول في القرن العشرين قبل الميلاد؛ وحينئذ عرفوا بقبائل «الكاش شو» أي أخواك في الكوخ؛ إذ كانوا يقومون على مبدأ المواخاة والتأسية بين الجميع. وحين كانوا يستنصرون بالعموريين ضد خنوتهم في آشور كان يسمى التاريخ ذلك انتصارا ساميا على الآريين على تحريف في التعبير؛ إذ العموريون هؤلاء لا يمتنون إلى السامية بصلته.

وهم الخلاصة الصالحة للتعجير من ذرية آدم . وكانت تغلب عليهم الوداعة واللين . حتى غلبت الأنوثة على الذرية على العكس من بنوة يعقوب .

ولقد كان هؤلاء العموريون يمدون بنوة يعقوب وغير بنوة يعقوب بزوجات صالحات . وقد كانت هذه المصاهرات تأخذ شكلا أساسيا مع بنوة يعقوب ؛ حتى كان لها أدوار عدة في تكوين بني إسرائيل . أما مع غيرهم فكانت تقف عند نبوة ، أو أصول عريقة في توريث ديني أو عقلي قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

وقد كان الكنعانيون الدور التكويني الأول لبني إسرائيل . وحينما ضمف الجانب السياسي للعموريين وقفوا فيه مع الكنعانيين على أرض فلسطين . فإذا أجدبت بهم هذه الأرض تسأل البعض نواذا إلى مسعر تقطع الأحجار لمرعون كوسيلة من وسائل العيش ، وقد كانوا أقدر من غيرهم على ذلك لضخامة أجسامهم . ولقد تجمع منهم عدد صحح أن يطالب به موسى من فرعون بعد ما نالهم منه من سوء وتعذيب .

والكنعانية لغة تسمية على تضاد من القناعة : إذ كانوا لا يعترفون بها كهد إلتقبائل «الكاش شو» . وقد كانوا فوق ذلك يعترفون بالجشع ؛ حتى كانت لهم هذه الأجسام . وكثيرا ما كان يشتد حسد ، أو كراهية بين الإخوة في بنوة كل عاهل من عواهلهم ؛ حتى رأينا ذلك ماثلا في إخوة يوسف .

هذا وحينما كانوا ينحدرون إلى الشمال كان يتكون منهم الشعب الخيى أو الخيتي ؛ ولعله كان يفضل الزواج بالأخت ، أو أخت الأم ؛ حتى غلبت عايله هذه التسمية . وما زال هذا الشعب ينحدر إلى الشمال ؛ حتى وصل إلى آسيا

الصفري؛ ثم انتقل^(١) منها إلى اليونان، وقد عرف فيه بالآخيين، وربما لم يعترف هؤلاء الآخيون بهذا التناخي إلا بعد أن عبرتهم الحوادث، وأخذوا من تجاربها بنصيب. وقد نزل منهم جزء بجزيرة كريت. وحينما كان ينقل حضارة المصريين إلى اليونان كان ينقلها عن تآخ، وأواصر نسب مع الكنعانيين حَمَظَة فرعون وسحرته.

وحينما كانت فروع بني إسرائيل تأخذ نموها على هذا النهج من القرن العشرين إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان يملك الحياة على ضفاف الفرات قبائل «الكاش شو»، ولقد كانت هذه القبائل كثيرا ما تتخالف مع الحثيين في مبدأ قناعة، وزهد ضد فرعون، أو ضد الكنعانيين سكان فلسطين؛ حتى إذا ظهر همرون ليتهم رسالة أخيه كان له من الحثيين وحلفائهم خير عون ضد الكنعانية في مصر أو في فلسطين.

وما زال بنو إسرائيل منذ نشأتهم يحتضنون السحر عن هذه القبائل في كل أرض يحلون بها حتى حمل لواءه كثير من علماءهم^(٢).

(١) انتقال شعب من بقعة إلى بقعة: أو فتاؤه لتخلفه ذرية صالحة منه لا يكون انتقالا عاما، أو فناء شاملا؛ بل يكون ذلك في بعض الأسر، وبمرور الزمن يفتي ما يكتنفها من قرائن ضعيفة.

(٢) لهذا الموضوع بقية ستجدتها في الموضوع التالي.

تعديل في مواقف السياسة والتاريخ

- ١ -

لقد كنا نظن أن الفراعنة شيء آخر في التاريخ ؛ كما كنا نظن أن الحياة العسكرية في جزيرة العرب كانت بعيدة عن أختها في وادي النيل ؛ حتى فهمنا أن قدامى المصريين كانوا جنسا مستقلا ؛ أو لا يمت بصلة ما . . . في لغة أو تفكير عن الحياة في جانبها الشرقي ؛ أو الحياة في عروبته الخالدة في رسم لغوي أو تقليد سياسي .

وتقد استنكرنا هؤلاء الفراعنة كما استنكرهم القرآن . واستبعدناهم كما يستبعد كافر في عقيدة أو دين . وإن إنكارنا لهم كان يجب أن يقف عند استنكار سياسة غاشمة ، أو رئاسة في كبر وغطرسة .

بن فراعنة يتفكر لهم الدين ذرية لإسحاق أو بقية من ذراريه ، وبين ظمأ أو طغيانا وحتموا به كان قد حذر الله سبحانه إبراهيم منه حينما رغب أن تكون الإمامة إرثا في ذريته على طول الطريق قال تعالى : « وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ^(١) فَأَتَمَّهُنَّ . قَالَ : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي . قَالَ : لَا يَنْبَأُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » .

(١) لقد كان هذا الابتلاء هو ترك ذرية له في صحراء العرب لتعيش مع بقية من ذرية نوح آثرت سكنى التفار . وكان الله سبحانه يقصد من ذلك أن يكون له من ذريته إمامة في زهد وقناعة كما سيكون له منهم إمامة في بناء خلاد على ضفاف الأنهار وحتى يكون ذلك فيما بعد مبدأ تأسيسية لمن يعانون شيئا من شغف العيش .

إن إبراهيم عليه السلام قد أدى ما عليه حين ابتلاه ربه بكلمات بترك ذرية له في القمار ليتأسى بهم الجميع إذا أجدبت الحياة على ضفاف الأودية، وشواطئ الأنهار؛ وإنه كثيرا ما كان يستجدي عطفه سبحانه لذريته من بعده لتبقى فيهم هذه الإمامة . وكثيرا ما كان ينادى ربه « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ . رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ . فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي ^(١) إِلَيْهِمْ . وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » ، علمه ينال شيئا من الموافقة أو التوفيق .

لقد كنا نوّد أن يستمر بيت إبراهيم في وتمام ؛ كما كنا نوّد أن يراعى جانب الرئاسة فيه جانب ضعف ، أو أقلية في الإنسانية نبي على جهل ، أو فقر ؛ حتى يدرك رشده ؛ أو ينال شيئا من نعيم الحياة .

إن إسحاق قد أدى ما عليه في تأسيس امبراطورية أبيه ، وترك ذرية قوية فيهم شخصيته فصالحوا الرئاسة إلى حين . وحين خرجوا على مبدأ أبيهم إبراهيم دبت بينهم الفرقة ، والانقسامات في أسرة أو ملكية . وإننا إذا رجعنا إلى إسحاق ، أو عقلية إسحاق لنعرف لم كان هذا الإخلاف في التوريث نجده كان قد جاء من أمومة على عقم . وإن ناحيته الفكرية كانت ناحية اندفاعية في تأسيس الامبراطورية تحت إمرة أبيه ، وتلك ما يتطبع بها الجنود ، ورؤساء الفرق تحت اللواء ؛ وهي في الواقع لا تؤدي في الذرية إلى استقلال في الرأي ، كما تؤدي إلى شيء من الصلابة فيه عند تساوى الرؤوس .

= أما التعبير بكلمات فيمكن أن نستدل به على مسألة الوحي ؛ وأنها ما كانت إلا على مقدار ما وصلوا إليه من فهم وإدراك لمعنى الحياة .
(١) أي تحبهم وترغب في أن تتأسى بهم .

هذا إلى أن صلة بين عقلية عامة وعقلية رئيس كانت على شقة . وإن إصابة المنفصل في سياسة ما نجح فيه إلا الأنبياء ، وجزء من عطاء التاريخ .
إن عقلية ابنوة إسحاق لم تكن أهلا ، أو على استعداد لأن تترجح في مصاهرات مع عقلية الساميين على ضفاف النيل . هذه الرئاسة . وتلك لإنتاج في نحت ، أو ملاحاة ، أو بناء سفن . وإيهم ما كان يعوزهم رئيس من بينهم . أو على شاكاة من أمرهم . ولو تنازل هؤلاء الرؤساء عن الاعتزاز بشخصيتهم ليعيشوا مع الساميين على هذه الحرف لامتزجوا بهم . ووقعت بينهما مصاهرات ؛ تعين على توريث ، وإسكانهم كانوا على خلف . وما أنقذ الموقف إلا يوسف حين استأثرها لنفسه .

إن عقلية إسحاق على ضفاف وادي النيل ربما كانت أدخارا لشخصية إلى حين ؛ وحيما تضعف الرئاسة في بعض الأسر . وربما كانت استكمالاً للعقلية من هذه الناحية ؛ والوصول بها إلى شيء من اللين من ناحية أخرى ، بعد الاعتراف بالهزيمة ؛ لتتم المصاهرات الجديدة على شيء من المشاكاة في الأخلاق . وإن ما حدث من تشاغب حول الرئاسة بين الأسر ، أو الاندفاع في تيار المدنية ، أو الانسياق في طريق الفنون فقط دون العاوم النظرية ، أو المجردة يرجع إلى ما كان يحدث من مصاهرات على أساس غير صالح لتوريث ، كما يرجع إلى تلك الناحية الفكرية ، أو العقلية الماثورة عن إسحاق .

لقد انتظر الساميون من هؤلاء الأرباب إصلاحاً للزراعة ، أو توفيراً للحصول يعيشون عليه فما أجدى هذا الانتظار . وكلما حضرت قافلة من بقية نوح المتخلفة حول الكعبة مع ذرية إسماعيل إلى مصر لتبادل تجارى عادت بما لا يقضى الرغبة ، أو يقيم الأود ؛ حتى نال كل فريق من فريق في تهكم أو ازدراء .

فيؤلاء وصحوا بالرعاة ، وأولئك سموا أنصاف آلهة . وقد بلغ الحرج بالجميع إلى الدرجة التي تسناهل نبوة ، أو رسالة في علم الزراعة وفلاحة البساتين .

هذا وفي القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد كانت رسالة يوسف . وبعث يوسف . ويخطى قصص الدين أو التاريخ حين يستأخرها إلى عهد الهكسوس ؛ أو يستقدمها ليكون يوسف سبطا أو ابنا مباشرا ليعقوب ، وإنه لو كان كذلك لخصت رسالته إلى نبوة مباشرة لنبوّة إبراهيم في نسج الأفاصيص .

إن نبوّة لنبوّة مباشرة لإبراهيم قد انتهت بالأسباط فقط ليعقوب وعمومة يعقوب قال تعالى : « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ . وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا . وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » .

إن ثلاث نبياؤا أشانا آخر غير شأن قصصه القرآن لنبوّة يوسف في قصة يوسف . وإنهم ما كانوا ؛ وإن يكونوا إلا في منعة من قومهم وبنيتهم . وإن قرابة النبي لا يعهد لها العقل إلا على أتم ما تكون . وإذا كان هذا أيضا شأن يعقوب ؛ فهل يحيز العقل أن يمتن يعقوب من بنيتهم ، ويرمى بضلال قديم . قال تعالى : « وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُون . قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » . ولو كان أبوهم هذا يقصد به يعقوب الفضل له لفظ يعقوب .

إن لفظ يعقوب في قوله تعالى : « إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا » ما يقصد به ، أو من حوله إلا وصية قديمة ليعقوب ، متوارثة في بنيتهم ؛ تلك هي ألا يدخلوا من باب واحد لكثرة عددهم ؛ أو خوفا عليهم من حسد ، وقد قضاهم له عاهل إخوة يوسف ، وأبو يوسف وإخوة يوسف .

إن يوسف بعد . . . هو الذي أنقذ الساميين من أرباب متفرقين ، وهو

الذى وضع نظام الأسرات المعروف لقدامى المصريين . وقد كان يتخذ أنصاره من هؤلاء الرعاة لما لهم من سابقة معه أو عليه قال تعالى : « وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَةٌ . قَالَ : يَا بَشْرَى ؛ هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرُودٌ بِضَاعَةٌ » . ولقد أمكن للحياة أن تمتزج في مصاهرات بين هؤلاء وهؤلاء لتكوين تلك الأسر لقربة في العقلية ؛ أو عوداً بها إلى الأصل وقد شاركهم في ذلك يوسف والأرباب ؛ لأنهم جميعاً ما زالوا يحتفظون بأسابهم ويعتزون بها لإبراهيم في تسجيل حوادث التاريخ .

إن تاريخاً يتبدى به تلك الأسر هو تاريخ إبراهيم . ولقد كان بعض هذه الأسر يدين لآشور فلا يدون للتاريخ ، والآخر يعترف بالماضى في شكل عودة روح ؛ فيدون له مع الأصل بتاريخ الحداث الجديد . وحينما كانت تتطاحن تلك الأسر من أجل السياسة أو الدين كانت تضيع تلك التواريخ ، ولا يحتفظ للحداث إلا بالقديم . وهذا ما جعل المؤرخ يقول : بأنه كان هناك عصور مظلمة في التاريخ .

لقد أنجب يوسف من مصاهراته مع ملك الساميين ابناً واحداً هو « مينا » ؛ ومن اسمه ؛ ومن الأمومة السامية اشتق لفظ « أمون » اسماً للروح أو رمزاً لها . وحين أدى رسالة أبيه ؛ أو أمها ؛ وحين قضى نحبته لم يكن له من الذرية من يصلح للملكية ؛ فامتلكها هؤلاء الرعاة . ومن الحالة للملابسة اشتقت لهم أسماءهم : « خوفو ، وخفرع ، ومنقرع » أى خافوهم ، أو خف الراعى ، ومنقرع الراعى في الأشغال الشاقة ، وقطع الحجارة . وقد شاركهم في ذلك بعض الكنعانيين ؛ ومنهم كان زعيم العمال « بتاح » أى رئيس البطاح ، والمهيمن على عمليات القطع بالوادي ، والموكل إليه تعذيب الأشقياء في بطن الصحارى .

إن ملكية مصر كانت في يد ملك يسمى « دِن » . والمعهد عرفت
الظهور ، ومن اسمه كانت « دِنَانُ » لأوعية الخمر ، وإن ذلك قد عثر عليه
منقوشاً في صخور مقبرة تسمى مقبرة « حَمَّاك » وإن حما كما هذا هو يوسف .
إن القرآن ليعتز بملكية ذلك الملك ؛ كما يعتز بوزيره العزيز ؛ وإن القوم
كانوا يعتزون كذلك بيوسف ؛ حتى حفظوا له سكاكين النسوة ، وآنينهن بتلك
المقبرة ، وإن التاريخ ما زال يجهل أنها ليوسف ، وإن موضع ذلك من
التاريخ هو منتصف القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد . وتاريخ غير هذا
لا يقره العقل ، أو يضل فيه عند المقارنة بين أحداثه .

تلك هى الحالة السياسية التى كان عليها هؤلاء ، وذلك موقعها من التاريخ .
أما سوء الناحية الاجتماعية ، أو أحوال الاجتماع فيرجع إلى ضعف العقلية فى
محاولتها تحسين الزراعة ، وإجادة المحاصيل ؛ لتفى بحاجة الجميع ؛ وإن من الطبيعى
أن تكون كذلك ؛ إذ هي العصر الانتقالى من صيد إلى زراعة . وإن القوم
لم يكونوا قد عرفوا التوفيق بين الحالات الجوية ومواعيد الاستنبات أو الحصد ؛
وربما كان زرع الغلال قاصراً على بعض المناطق الدفئة . وربما كانت رؤيا
ملك الساميين التى فسرها يوسف تنبؤاً بما ستكون عليه الحالة عند استنهاض
الهمم ومحاولة الزراعة فى مساحات أوسع من بقاء سنبيلات خضر وأخر يابسات .
وربما وهو الواقع أن تلك البقرات العجاف هى التى سينهكها التعب فى الحرث ؛
وأنها يجب أن تستجم لتأكل غذاء لبقرات سمان تُؤخذ بدلها للحرث . وعلى
كل فذلك تنظيم لحركة العمل الذى جاء به يوسف ؛ وإنه ما زال يشهد له
أثران خالدان بالصعيد ، هما قلعنا سمنة وخمّة ، وخمّة من خمّ الأكل والتهامه
بشره مع صفير من الأنف ، وعندها كان مركز أخميم .

بن يوسف وخلفاء يوسف قد وضعوا علم القلاحة على أساس ؛ وإن الأمر لم يقتصر على هذا ، أو على ضفاف النيل ؛ بل تعداه إلى شواطئ دجلة والفرات . ولقد توصلوا له فيما بعد إلى التحكم في مصارف المياه بإقامة السدود . وقد طوّقوا بحيرة موريس لتمد فرعاً من فروع النيل لا يزال يُعرف الآن باسم يوسف . ولقد تحققت رؤيا صاحبيه في السجن ، وأخرجت الأرض من الغلال ما فضل^(١) أن يكون غذاء لطير ، ومن العنب ما صح أن يكون عصيراً لخم ، وذلك معنى قوله تعالى : « وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ . قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا . وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ . نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ؛ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . يَا صَاحِبِ السَّجْنِ أَمَا أَحَدُ كَمَا قُضِيَ رَبِّهِ خَمْرًا . وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ . قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » . أما الصلب ، أو أكل الطير من الرأس فهو كناية عن عمل الفلاح . وأما تفاوت بينه وبين سقاية الخمر فترتيب شأن وظائف وموظفين ، أو تنظيم للثروة بين دخل وخراج .

ولقد قامت بجانب هذه التجارب الزراعية تجارب أخرى في الإنشاء والتعمير . وما زالت تلك التجارب في طريق الإجداد والتحسين ؛ حتى وصل المصريون بها إلى نهضة لامثيل لها في الزراعة والفنون من بناء ، وتصوير ، ورسم ، وتلوين . . . الخ .

هذا وإن تقارباً بين زراعة وتجارة في سفن ، أو في قوافل مما ساعد على

(١) عند بعث يوسف ، وفي تلك الآونة يتحقق قوله تعالى : « ونذر فيها أقواتها في أربعة أيام . سواء لساثنين » وأربعة أيام : أربعة آلاف سنة قبل بعث يوسف .

تماسك الحياة الاقتصادية في أكبر مساحة ، وبنائها على مصاهرات بين الجميع من عرب وفينيقيين ومصريين ... الخ . وما زالت تنمو في الذرية والأعقاب ؛ حتى عرف القوم كيف تؤسس الممالك ، وكيف تقام المدن ، وكيف تدعم السياسة المالية لكل إقطاعية أو مملكة ؛ ولكن سرعان ما انقطعت تلك المصاهرات ، وانقطعت بانقطاعها تلك الإمدادات عن العرب ، وعادت الحال إلى أسوء مما كانت عليه .

ولقد كان الظلم أكثر ما يقع على الكنعانيين في مصر أو في فلسطين . وربما كان ذلك لعدم وجود أواصر قرابة بينهم وبين المصريين ؛ إذ كانوا ساميين ؛ أو لعدم الاعتراف بها لهم مع بنوة يوسف ؛ إذ كانوا قد أساءوا إليه من قبل ، وربما كان لاختلاف في العقيدة وعدم الاعتراف بها لفرعون .

ولقد كان يسيطر على الحياة في جانبها الشرقي قبائل « الكاش شو » ، ولقد كانوا على مبدأ أبيهم إبراهيم في حياة الخشونة والبساطة في العيس رعاية ، أو حلفاً مع بنوة إسماعيل ؛ كما كانوا يؤثرون مداومة النظر في سحر وعلوم عقلية على الاشتغال بنحت أو تصوير أو زخرفة وبناء ، وكانوا في كل ذلك على العكس من المصريين ؛ لذلك كان ينتظر بين حين وآخر أن يقع بين الفريقين شقاق أو نزاع من أجل هذه المبادئ ، أو ثاراً من بني إسرائيل أو لبني إسرائيل .

هذا وقد أمكن لتلك المصاهرات التي كانت من بنوة نوح مع ذرية مياشرة لإسماعيل أن توجد لنوح ، ومن ذريته أنبياء هم : هود ، وصالح . وشعيب . ولقد ذكر هؤلاء أو بعضهم في نسج قصص القرآن بعد نوح وقبل إبراهيم فقال تعالى : « أَلَمْ بَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ . وَعَادٍ . وَثَمُودَ ،

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ... الخ . وفي أخرى يقول سبحانه
على لسان رسوله شعيب : « يَا قَوْمِ : لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي . أَنْ يُصِيبَكُمْ
مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ . أَوْ قَوْمَ هُودٍ . أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ . وَمَا قَوْمَ لُوطٍ
مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » . فوقع في ظن البعض أنهم يتأخرون أيضا في الزمن على
إبراهيم ، ونسج لذلك أن عربا بائدة ، أو قوم هود ، أو قوم صالح كانوا قبل
إسماعيل . والواقع غير ذلك ؛ وإنهم لم يذكروا على هذا الترتيب إلا من حيث
القربة لنوح . وإن مصاهرات أو تعارفا لإسماعيل مع « جُرَّهُمْ » اليمنية التي
يحكى عنها التاريخ لم تكن لإسماعيل ، أو لبنة مباشرة لإسماعيل ؛ بل كانت
عند العدنانيين من ذريته ، وفي أخريات تلك الآونة من التاريخ (أى في القرن
الرابع عشر قبل الميلاد) .

إن الله سبحانه قد وضع لنا نبوة متسلسلة في ذرية ثلاثة من الأنبياء . وهم
آدم ونوح وإبراهيم . أما نبوة بنوة إبراهيم فما غاب عنها قلم . أو ضل فيها فكر
وأما نبوة من نبوة آدم فقد تركزت في آل عمران . وأما نوح فله هؤلاء
الثلاثة . أو الأربعة مع لوط .

هؤلاء الثلاثة الأنبياء كانوا على مبادئ « الكاش شو » ، أو مناصرين
لهم ؛ ليأخذوا بالتأثر لإخوانهم الذين كانوا يطردون من مصر إلى القفار بين
حين وحين ؛ أو ليبطئوا بتلك المدنية ؛ حتى يُجدَّ العقل في مزاولة الفلسفة
والعلوم ؛ وحتى يكون هناك توازن في العقلية بين علوم وفنون .

إن أول ثار ، أو أول تبطى كان على يد « الهكسوس^(١) » . وإن أول

(١) لفظ هكسوس لغة من « هك » أى روح غائبة . قد نمت ، أو كثر لإدلالها
عن غيب ، « سوس » من الوسوسة ، وكانت في الأصل على معنى الوشوشة في العامة .
(٥ - بعث)

من حمل لواء تلك السياسة هو « هود » بعد أن أصلح من شأن قومه ،
وانتخبت له الحياة رجالاً أشداء هم هؤلاء المكسوس .

ولقد كان هود وأعوانه يرسلون الإنذارات القوية ، وعبارات التهديد
في شأن هذه الفنون لا من حيث أنها بناء وتعمير ؛ بل من حيث أنها بنيت
على أساس خاطئ في الدين . قال تعالى : « أَتَدْبِرُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ .
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ؛ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ^(١) . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ،
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا » .

ولقد كان هؤلاء على حق في توجيه هذه الإنذارات ؛ إذ القوم لم يصلوا
بعد إلى شيء من السعادة الخلقية . أو الدينية يستأهلون به هذا النعيم . وما كان
لم يكن ظالماً ؛ إذا رأينا بجانبهم أقواماً يشقون ؛ لبذر شيء من القناعة في
النفوس ؛ وشيء من اللين في الأخلاق .

ولقد كان أعوان هود ، وخنفاؤه بدءاً على مبدئه . وما لبثوا أن تفسّرت
نفسهم فحاكوا المصريين في تقاليدهم الدينية ؛ وجاروهم في حركة البناء والتعمير
وعادت الحال إلى ما كانت عليه ؛ واحتاج الأمر إلى بعث جديد . فجاءهم
صالح بناقته ؛ وبتهديدات من أنفسهم لأنفسهم من قبيل تهديدات هود ؛ إذ
يقول : « أَأَنْتَ كُنْ فَيَا هَاهُنَا آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ
طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا
وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ^(٢) » ، وكأنه يريد بهم العودة إلى بطن الصحراء
أولا يجاروا هؤلاء المسرفين في تقليد أو بناء .

(١) أي تعادون إلى الخلد بعد الموت على أساس عودة الروح إلى جسد الدنيا بعد التحنيط

(٢) المسرفون الفراعنة المغالون في أفكارهم .

هذا ولقد أحدثت تلك التهديدات فيما بعد ارتقاً في الأخلاق ؛ إذ فهمها الناس سياسة ، ومبادئ تتبع ؛ فضعفت روح العمل في النفوس ؛ وساء فهم القوم .
أعني الحقوق ؛ فطففوا الكليل ، وأخسروا الميزان . وجاء شعيب ؛ ليوازن بين أخلاق وفنون ، أو بين حقوق وواجبات .

حينئذ ؛ وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد كانت مبادئ « السكاش شو » قد ضعفت في النفوس . فأرادوا البناء والتعمير ؛ فبنى فريق جنة اليمين . أو اليمين ^(١) وهم سبأ ^(٢) . وبذر الثاني للكلدان . أي الخلدان في الشمال . بعد أن صاهروا الفينيقيين ؛ ليأخذوا عنهم شيئاً من فنون يوسف . أو نوح . وهذه وتلك قد عبر عنهما سبحانه بقوله : « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَانِهِمْ آيَةٌ . جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ . كَأُولَا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ؛ وَاشْكُرُوا لَهُ . بِلَادَةٍ طَيِّبَةٍ . وَرَبِّ غَفُورٍ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ . وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ . جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىٰ

(١) وبعد قليل أصيبت بسيل العرم . وكانت منهم جرهم الجنية التي صاحبت المدنانية من بنوة إسماعيل .

(٢) لفظ سبأ من سباق الخيل ، وقد بقي على أصله كما في العلمية . وقد كانوا يقسبون بها من أجل المعرفة وتحقيق مشاهد الطبيعة ، وفيهم نشأ لفظ « فيلسوف » من في - ظال - وساف يسوف أي يتم روش الحيوان ؛ ليقدر به الزمن والمسافة (على وزن مفعلة . من ساف يسوف) واللام للتعليل . ومنها المثل المأثور في معنى الفلسفة : « جبت الأرض متفلسفاً » . وأما لفظ « ماروت » فن الروث . وهو التحوير الأخير للفظ ماردة . وقد كان نصيبهم من المعرفة الغيبية يزداد كلما بالغوا في استنشاق رائحته ، ولعل ذلك كان بناء للروح وتكويناً للصورة الكهربية من الغازات المعدنية المنبعثة من هذه الروائح . وهي الأعراف . وقد هددها القرآني يوم القيامة كل مخالف ؛ ولو في تناول المعرفة على غير أساس في سورة من سورة قال تعالى : « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » . وإن ذلك لن يكون إلا بناء للروح على نمط جديد وعلى معرفة تتجلى بها الساعة ، كما أنه عقاب لتفريط النفس في تناول المعرفة عن طريق الاستقلال في الرأي أو الاستنتاج والمجهود الشخصي .

أَكَلِ حَطْبًا ، وَأَثَلِ ، وَشَىءٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ؛
وَهَلْ يُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ » .

ولقد ضاع أمل القوم في تكوين مزارع وإقامة بساتين . ولعل ذلك كان
لأن عقليتهم كانت أقرب إلى علوم منها إلى زراعة أو فلاحة بساتين . وعلى غير
جدوى كانت تُلقى أشعار الحماسة ، ويؤلف القصص ؛ لإعادة شيء من مجد الآباء ؛
إذ كانت آشور قد ظهرت ، وقطعت الطريق بين الفريقين ؛ حيث وصلت إلى
شواطئ البحر الأبيض . وتلك ما أرادها الله بقوله : « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْقُرَى ^(١) الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ^(٢) ظَاهِرَةً . وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّبِيلَ . سِيرُوا
فِيهَا لَيْلًا ، وَأَيَّامًا آمِنِينَ . فَقَالُوا : رَبَّنَا : بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ^(٣) ، وَظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ . فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ ، وَمَزَقْنَاَهُمْ كُلَّ مُزَقٍّ . . . » .

وحينما ضعفت نفوسهم عن مزاولة السحر أمكن لإبليس أن يصدق عليهم
ظنه « فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . وهؤلاء المؤمنون هم النواة التي
نشأ عنها الكلدان فيما بعد ؛ كأمة ، بعد أن كانت قري ، وحينئذ وجد للشيطان
أنصار كما للجان أنصار . ولعل شيطاناً حين رأى نجاح سياسة تلقين أراد أن
يكون له فيها نصيب ؛ فانقطعت أو أخذت تنقطع بالجميع أسباب من السماء .
ولقد سارت الحقيقة مع هؤلاء وهؤلاء بين صدق وإخلاف ؛ حتى وصمت العقلية
بالحيرة والتردد .

وبعد فاعلم هناك تصحيحاً آخر لتجاهل التاريخ ؛ ولعله كان لدولة على

(١) أي الكلدان عند نشأتهم الأولى ؛ وقبل أن يكونوا أمة .

(٢) هي قري آشور .

(٣) أي زد لنا قدراً في المسافة نصل به إلى معرفة .

ضفاف الوادى لبنى إسرائيل ؛ واعلمها كانت ثاراً للإسرائيلية من فرعون ؛
على أنها لم تعمّر بالوادى أكثر من مائة عام . وإنما لانستطيع أن نقيم لها
الأدلة من ثنايا الآثار ؛ أو من ثنايا التاريخ إلا إذا استطعنا أن نهدم شهرة خاطئة
لأسرة من أسره .

إن التاريخ يشهد أن التدوين فى عصر الرمامسة قد عبثت به الأيدى
وتناولته على خيانة بمحو أو تحريف ؛ وإنه ليقر بشهرة تكاد تكون كاذبة
لفرعون واحد هو « توت عنخ أمون » . وإن العقل ليضل حينما يحاول أن
يستنتج . . . لم كانت له وحده هذه الشهرة . ومن أى طريق اكتسبت ،
أو استحوذت مقبرته على هذه الآثار .

إننا فى الواقع إذا سردنا هذه الآثار وجدناها أشلاء لجملة عَصْرِ ، أو عدد
من السنين ؛ وإنها فى الواقع مما لم تجر العادة به أن يوضع فى قبر ؛ لتخاد به
جثة ، أو تسترشد به روح ؛ وإنها يغلب عليها أن تكون أثنائنا المنزل ، أو متاع
لبيت ؛ وإنه فى الواقع ربما استحوذ عليها ؛ ليكتسب بها ملكية ؛ أو ينال بها
شهرة ، أو أنه يريد أن يتخطى بها التاريخ ، أو يرجع معه ؛ ليضع نفسه بجانب
إخناتون ؛ حتى يستطيع أن يمحو هذه الفترة التى كانت لبنى إسرائيل .

إن القرآن ليعصّدق حين يثبت وجوداً . أو رغبة لإقامة هذه الدولة ؛
حيث يقول سبحانه : « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ ؛ أَنْ تَبَوِّأْ لِقَوْمِكَ مِمَّا مِصْرَ
بُيُوتًا . وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

إن وحيه سبحانه أمر يجب أن يأخذ طريقه إلى التنفيذ ؛ وإنه بعد ذلك
وفى هذه الآية أمر لموسى وأخيه ؛ ليقيا به أركان هذه الدولة ، وقد كان موضع
رسالة الأخوين ؛ وإنما سنجاول أن نستنتج . . . كيف استطاع لموسى وأخيه

أن يثبنا لها وجودا على ضفاف النيل .
إن موسى حين استنقل الأمر نادى ربه : « رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ
وَمَلَآئِهِ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ ؛ عَنْ سَبِيلِكَ . رَبَّنَا
اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ؛ فَلَا يُؤْمِنُوا ؛ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ . قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمْ . فَاسْتَقِيمَا ، وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ » .

لقد كان أول حدث لزعة هذا البناء غرق فرعون ، ونجاته ببدنه ؛
ليكون لمن خلفه آية ؛ وإن ذلك الحادث ؛ كآية أثرت في نفوس المصريين
لم يحلله لنا التاريخ .

إن إخناتون حين أدركه الفرق : « قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . وإنه من قبل هو الذي
تربى موسى في حضنته ؛ وإن التاريخ يحفظ له كثيرا من الأناشيد الدينية
التي لا تفرق عن الوجدانية في شيء ؛ وإنه في الواقع قد أخذ الكثير منها عن
موسى قبل هذا الحادث ؛ وإنه قد هم بالإيمان أكثر من مرة ؛ فمنعه قومه ،
أو منعه قرابته ؛ خوفا على ملكية ؛ إذ كانت تنازعهم فيها أسرة الرمامسة .
هذا هو شأن فرعون مع هذه الآية . ولقد كان على غير مرأى من
موسى وهرون . وإن موسى وهرون ما وصلهما شيء عن هذا الحادث ؛ أو كيف
أثرت في نفوس القوم .

إن العقل ليحكم مع القرآن أن هذا الحادث كان آية ؛ لها نتيجة ، ولها
أثر في نفوس القوم . ولقد آمن بها الكثير مع زوج إخناتون . وحين حاول

أحد الرمامسة أن يتزوج منها ؛ ليثبت الملكية في أسرته بهذا الزواج ؛ وحين أرادها على مبدأ البناء ؛ لتخالف به مبدأ قبائل الكاش شو . قَالَتْ : « رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ، وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ . وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » . وقد آثرت على كل ذلك بيتاً من طين في جنوب الصعيد أو في « سوهاج ^(١) » ؛ حيث نشأت أسرة موسى وهرون .

إن هذا في الواقع ينبؤنا بما كان عليه المصريون من خلاف بعد هذا الحادث . وإن امتلاك أحد القواد « حورمحب » لزمام الأمور بعد إخناتون ما كان إلا انتظاراً ؛ ليتفق القوم على الميراث . وإن ملكية لقراعنة ما . . . بينه وبين إخناتون من نسج الخيال ؛ على أنها فترة وجيزة ، والدس فيها ظاهر . هذا . . . وإن نبذة تاريخية . لتوت عنخ قد امتلأت بالكهانة ، وألفاظ الكهانة ؛ مما لم يُعرف إلا بعد إخناتون بأكثر من مائة عام .

ولقد خرج موسى من مصر على عودة . أو رغبة في عودة . وقد انقسمت العقلية بعد خروجه بين مؤمن وكافر . ولو كان له من نفسية قومه وأعدائه ما للقواد من جنودهم ؛ من نصره صادقة ؛ وبتٍ للسرايا ؛ واستطلاع للأحوال لتشجع على العودة ؛ وكان له الأمر . ولكنهم كانوا أحوج ما يكونون إلى شيء من النظم الحربية ، وشيء من الصبر والجلد ؛ وحين حاول أن يبثها في نفوسهم كانوا منه على خلاف . وضربت عليهم الذلة ، والمسكنة لأشياء سوى تنشئتهم على الصبر ، والجلد ، وقوة الاحتمال ؛ إذ كانوا مترفين . واستنزاهم إلى ما يكون عليه الجندي من الطاعة ، وصدق المعونة لرئيسه .

(١) سوهاج من «سو» أى انظر ، وقد بقيت في العامية كذلك . ولكن بالدين .

وهاج بهيج . من هيجان أدوات السحرة .

ولقد حاول موسى أن يعود بهم إلى مصر؛ عن طريق فلسطين؛ ولكنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى شيء من الجلد؛ فضلوا الطريق. أو قالوا: « اذْهَبْ أَنْتَ . وَرَبِّكَ . فَقَاتِلَا . إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » :

ولقد قام هرون من بعد موسى، وكان له من الحثيين خير نصير؛ إذ كانوا على كرهٍ لإخوانهم في فلسطين. ومن جهة أخرى كانوا يعرفون إخناتون، ويرتبطون بأسرته بنسب أو مبدأ، وعرف في زواج « إخناتون = خيتيين » ولقد كان على مصر إذ ذاك رمسيس الثاني؛ وعبثا حاول استرجاع أملاكه بآسيا؛ إذ كان قد اقتسمها هرون مع الحثيين؛ وعاد شبه منهزم؛ وتنازل عما كان عليه من غطرسة. ودخل في الطاعة لهذا الخلف الأسيوي. وزوجه ملك الحثيين من ابنته؛ ليؤول عرش مصر لابنوة منه. وقد كان له منها منفتاح هذا وإنه لم يوافق القوم على مبدأ البساطة في العيش؛ إذ كان لقبائل الكاش شو بقية. وكان الحثيون معهم على هذا المبدأ. ولم تكن آشور قد وصلت إلى سواحل فلسطين. ولقد كان على حق. وإلى حدٍ ما... (١) حين نادى وزيره « هامان »؛ ليبني له صرحا عله يطلع إلى إله موسى؛ ذلك الذي يأمرهم بالخشونة، وهذا التمشف المقوت. ولقد أمكنته الحججة؛ ليعارض بها هذا الخلف؛ حين اعترضوا عليه في بناء صرحه الخالد « معبد الرمسيوم » أي « للرمس يوم حساب ».

ولقد ساعد الرعية على تجديد مبانيهم، وإعادتها إلى أحسن مما كانت

(١) أما أسلوب القرآن في ذلك، فهو أسلوب قصصي؛ وللعبرة فقط. وهو مبني على كثير من الإيجاز. أما الفراعنة الذين كانوا يتولون الردود على موسى فلم يكن منهم إخناتون؛ إذ كانوا كثيرين؛ وكانوا يتطلعون إلى الحكم من بعده؛ وكان إخناتون كثيرا ما يكون العوبة في أيديهم.

عليه ، وقامت حركة إنشائية لعدة قري ، منها قرية . أو أكثر لبني إسرائيل . وقد وقفت حركة الكشف عند واحدة فقط . هي ما عرفت بتل اليهودية . وحين مات رمسيس الثاني قام ابنه منفتح بإيعاز من قرابته الأسيوية ليمحو ما دونه أبوه من الآراء التي عارض بها هذا الحلف ؛ والتي لم تدخل لهم في مذهب . أما ما دون له من انتصارات فكان من نسج خيال توت عنخ أمون ؛ ليسفني بها على تلك الدولة التي استعدت ؛ لتقف على قدمين بعد منفتح .

قال تعالى : « وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبَوَّأً صِدْقٍ - استجابة لدعوتهم على فرعون - وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ . فَمَا اخْتَلَفُوا ؛ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ . إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » . هذا ما قاله الله في شأن هذه الدولة ، وإنه لقول لا يتنسباً لبني إسرائيل باستقرار . ولقد غابت عليهم شهوة المال ؛ فوقعوا بها في اختلاف على الرئاسة .

فريق يؤثر الآخرة . وثان يريد بها بدخاً ونعياً ، وثالث يبغى التوسط بين الأمرين . وهذا . أو ذاك تمثله قصة قارون . قال تعالى : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ؛ فَبَغَى عَلَيْهِمْ . وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ؛ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ؛ وَلَا تَدْنُ نَاصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا . وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ . وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » . وحين لم تنجح فيه هذه العظة ؛ وحين خرج على قومه في زينته . « قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَا آيَاتُ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ ؛ إِنَّهُ لَدُوٌّ حَظٌّ عَظِيمٌ » .

حينئذٍ كانت قد حدثت انقلابات عامة في الأفكار حول هذه المبادئ .
و حينئذٍ انتهرت تلك الفرصة عمومة لرؤس الأول في طيبة ؛ وانفقت مع
بنى إسرائيل المترفين ، وترَضَّتْهُمُ بِالْمَالِ ؛ لإعادة الملكية فيهم ؛ على أن يكتبني
بنو إسرائيل بالكهانة . أما توت عنخ آمون فقد تزوج من أعقاب أعقاب
إخنا تون ؛ لِيُثَبِّتَ الْمَلِكِيَّةَ لِنَفْسِهِ بِهَذَا الزَّوْجِ . وقام ؛ ليطاردهم الذين أوتوا العلم من
بنى إسرائيل إلى القدس . و بإيعاذ منه نزل الأرض المقدسة قوم من الحثيين
سكان كريت ، و برئاسة جالوت ؛ ليواصلوا سلسلة الهزات بينى إسرائيل .
و حين جدَّ الجدُّ « قالوا : لِنَبِيِّ لِهَيْمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا . نَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا . قَالُوا : وَمَا لَنَا أَلَّا
نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا . فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ
الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . و حين بعث لهم الله طالوت ملكا .
و حين تذكروا في اختياره تواتت عليهم سلسلة الهزات ، ولم ينقذهم إلا
داود ؛ حين أمكنه أن يوفق برسالته بين هذه الآراء .

ولقد فئت فكرة الهدم برسالة داود وسليمان ؛ كما فنى بها ؛ ولوقت محدود
زهداً وتكشف . وأصبح الجميع يراعون الأناقة ، والزخرفة في البناء ؛ على نحو
ما كان عليه المصريون .

و حين فئت فكرة هدم كان قد فنى معها معظم بنوة صالح وهود . الخ
إذ لم يكتب لها ؛ كما أرادت^(١) لنفسها بقاء . حسب المجازفة بالنفس ؛ أو حسب

(١) لذلك أطلق عليهم جميعاً « عرب بائدة » . وقد كانت الإبادة تكثر فيمن ينصر
فرعون في مبدئه الدينى منهم .

وراثة الأفكار . ولو بقيت لكنت معمول هدم للإنسانية بين حين ؛ وحين ؛
وإنها ما فنيت إلا بعد أن ورثت العرب هذه الأفكار . ومن بقي منهم
ربما من اتزنت فيه صفات النجدة ؛ وارتقت طباعه من وحشية إلى تضحية
وفداء . وإن العصر الجاهلي بعد ما كان إلا وراثه للخلاصة الصالحة من
هذه الطباع .

ومنذ ذلك الحين ؛ وفي القرن العاشر قبل الميلاد ، أخذ فن العمارة يسير
بخطى واسعة مع رسالة داود وسليمان في جميع أجزاء المعمورة ؛ تقليداً للمصريين ؛
وبمعاونة المصريين ؛ ومن تلك الآونة أيضاً أخذت الحياة العقلية تسير في
اتزان . أو أخذت تنتقل من محسوس إلى معقول .

وإننا إذا رجعنا إلى قبائل « الكاش شو » نجدهم كانوا قد صبغوا
الحياة المصرية بصبغتهم في حب حيوان ؛ أو اعتزاز بحيوان . وفي مزج الحياة
الدينية بالسحر . في أناشيد وتعاويد . وفي طريقة الرسم والتصوير ، وبنائها على
رموز من الحيوان . وقد انتقلت تلك الصبغة إلى النحت ، وصناعة التماثيل ؛
حتى رأيناها في أبي الهول وأشباه أبي الهول . وحين أراد « إسماتيك » أن
يقيم الحضارة المصرية على أساس صحيح ؛ وحين دالت دولة هؤلاء ، لم ير داعياً
يستوجب بقاء هذه الرموز .

هذا ... وقد كان الهند ، وما وراء الهند وسط هذا الصراع مأوى
لكثير من هذه الجماعات ؛ حتى رأينا تلك الروح ، أو الاعتزاز بحيوان
يسيطر على حياتهم الدينية حتى اليوم ؛ وحتى رأيناهم يقولون بوحدة وجود ،
ويعترفون بتناسخ في الأرواح بين إنس وحيوان . وربما كان منهم من نسج

للحيوان أفاصيصة التي رأيناها ، أو قرأناها في كتاب كليلة ودمتة ؛ ولعلمهم كانت لهم بقية اختمت من وجه الآشوريين في قرية ما . . . أو مدينة من مدن الفرات ؛ فأثمت قصصا بين إنس وجان . رأيناها في رسائل إخوان الصفا . إن هذه الناحية الأدبية لهؤلاء ما كانت وليدة يوم وليلة ، أو وليدة ترف ؛ بل كانت وليدة حزن ، وألم ؛ تعاقبت بهما الأجيال والعصور . وإنها في ذلك كأي ناحية أدبية لفترة تطوى . . . من فترات السياسة والتاريخ .

هذا وقد صحبتهم إلى الهند رغبة في زهدٍ وتمشيف رأيناها فيما أخذناه عنهم في علم التصوف . أما السحر فقد كان من إرث بني إسرائيل ، وقد نبغ فيه علماء كنبوغ علمائنا في الأدب إلى الدرجة التي يسايرون بها القرآن ، وقد عضدوا به رسالة موسى كما عضدنا الإسلام بالخطابة والأدب . ولكنهم ما لبثوا أن اختلفوا فيه على أنفسهم ؛ فظهر على يد البعض كآيات موسى فاحتفظ به للدين . وإن الآخر قال الله فيه : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا . فَانْسَلَخَ مِنْهَا . فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْمَعْوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ؛ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ » .

وحين جاء السحر عن طريق الشيطان دخلته أشياء اعتبرت فتننا في الدين ؛ على حين قد رجع بها آخرون إلى ما كانوا عليه من عبادات ؛ حتى كثر الشك والتأويل .

وحين أخطأ الشيطان ظن الحثيين في تناول السحر رموا بفلسفتهم على شواطئ آسيا ، وآثروا الترف والنعيم ، واعتزلوا التوراة ، والتمسك بالدين ؛ أو تناولوها بالتحريف ؛ في حين أن آخرين منهم قد أخذ السحر معهم شكلا

طبييا فقط ؛ على أنه انتهى بأبولو ، واستقولا بوس . وحين أخطأتهم المعرفة عن طريق السحر شَمروا للوصول إليها عن طريق العقل . ومن هنا نشأت العداوة بينهم وبين سكان القدس ؛ حيث نجح السحر معهم ، وأخذ شكلا دينيا ، ونبغ فيه كثير من العلماء ؛ سُموا أنبياء . وإن لم يصل البعض إلى درجة الأنبياء . وقد ظهرت التفرقة حتى في التسمية ؛ فهؤلاء وقفت التسمية معهم عند مقاطع لا تدل إلا على السطو ، والسرقه لمعرفة الشرق . وهؤلاء فضلت لهم مقاطع ترتبط بالدين ؛ كما في الأردن ، وأورشليم « حلیم » .

والشعب الحثي حين أخذ تكوينه من العموريين . والسكنعانيين . والجبليين . وقليل من ذرية يوسف أو نوح كان أنسب ؛ لتكوين الشعب الهيليني^(١) ؛ وأشكل ؛ لحل لواء المعرفة عن طريق العقل ؛ وأشكل ؛ لتكوين الفرق الأوربية فيما بعد . . . ولقد دعا ، أو يدعو ذلك بالطبع إلى شيء من الفوضى في الحياة الزوجية ؛ لتعود كل ذرية إلى أصل من أصولها . وقد كان ؛ ونشأ عن ذلك ؛ أو من أجل ذلك الدوريون . أي الذين يأتون زوجاتهم بالمنازل ؛ ليوم ؛ أو أسبوع ؛ أو شهر ؛ أو ريثما يتم التوافق الجنسي بين الزوجين ، وقد يستمر إذا أنجب ؛ أو أوجد جمالا في الأنوثة ؛ أو هيمة من الزوجة ؛ لتشارك الزوج في جمع الثروة . ولقد أدت هذه التجارب التي جاءت على عفو إلى نجاح هذا الشعب في بناء معرفته على العقل .

وقد نشأ الشعب الأيوني على تجارب من تلك . وهو من أين ، وإلى أين البيات ؛ إذ كانوا على زوجية تشبه زوجية البانسيونات ، وكانت الطفولة^٩

(١) الهيليني لغة كان منه هل ، وأين عند تجزئ الألفاظ .

فيها تنسب للأم ؛ فإذا ظهرت فيها نجابة ، أو صفة مؤثرة احتفظها لنفسه .
أنجب زوج اختلف على الأم ؛ أو من قويت المشابهة بينه وبين هذه الطفولة .
وقد نشأ بينهم لما ضلُّوا فيه شيء يشبه الاستخارة عند استشارة آلهة الطب
في ذلك . وقد نجح أبولو نجاحا على غير يقين في إرجاع كثير من الذراري
إلى أصولها . ومن رأيه اشتق اسمه . أي « هو حكم بأنه أب لو كان في الإين
كذا من صفاته » .

ولقد كان لهذه التجارب نفايات عُرِفَ بها الشعب اليوناني فيما بعد .. وإن
العقل ليحكم بإرجاعها لآدم ؛ حين آثرت البقاء مع الذلة ، والمسكنة ، والفقر
على الهجرة إلى الشمال مع هذه الفرق ؛ لطالب العيش .

ولقد كان للشرق نفايات تشبه تلك لا في المسكنة ؛ بل في جمع الحطام
بأى شكل ، وعلى غير نظام . وقد عرفت بالزط والقرامطة . وقد كان نفي
العباسيين لهم إلى اليونان من قبيل ردّ الأنساب إلى أصولها .

هذا . . . ولقد ظهرت طباعٌ كثيرٌ من الأنبياء في كثير من الفرق
الأوربية ؛ امتازت بها إلى جنسيات عند نهضتها الأخيرة . فناحية دينية في
الألمان لإبراهيم . وبلشفية في الروس لسومر ، والميديين ، ثم « للوط »^(١) ؛
إذ كان يؤثر بناته بقوله فهؤلاء بناتي إن كنتم فاعلمين . أما الغال فليوسف ،
وأما البريطانيون فقينيقيون^(٢) . . . الخ »

(١) السوماريون هم قوم لوط ، وقد نشأت بينهم ذريته ، وفيهم نشأت لغة الفكاهة
والسمر والغناء . وهم في الأصل ذرية لنوح ، وقد ساروا مع الحياة سير الآريين . هؤلاء
يعدونها بالعلم ، وأولئك يخففون وطأتها بالفكاهة والأدب والغناء . ومن ذراريهم من بنى
« سماريا » عاصمة داود وسليمان ؛ وعلى عقو بنى العباسيون « سامري » .

(٢) القينيقيون لغة من الفنيق وهو نخل الإبل . وقد كان لها شأن عظيم في مدسفن =

ولقد كان انتقال الفينيقيين إلى شمال إفريقيا انتقالا لأواصر النسب والمعرفة لنوح مع الليبيين ؛ وما لبث هؤلاء أن نعى فيهم حب الاستطلاع ، وحب العودة إلى الشرق ؛ لينهلوا من مصارفه على نهج ما كان عليه علماء الأندلس من المسلمين . ولقد كانت تصالهم أخبار كثيرة عن سليمان ، وملك سليمان عن طريق الفينيقيين ؛ وحين عابنوا الموقف لم يجدوا أنفسهم أقل جدارة من المصريين في حمل لواء المعرفة ، والسياسة على ضفاف النيل .

وحين اغتصب شيشاق^(١) كنوز سليمان اغتصب معه كثيرا من نسوته ؛ حتى صارت هذه سياسة ؛ نهج عليها الليبيون مع الفينيقيين . ولعل ذلك كان استكمالاً لعقيدة الفينيقيين في السياسة إن أعوزتهم سياسة ؛ عن طريق الوراثة من الأمومة السامية المتخلفة في ربوع العلم ؛ وعلى ضفاف الشام . وربما كان رداً للنسب إلى أصولها بعد عوز في المعرفة .

== الفينيقيين بالتاجر . وربما كانوا يمتلكون التجارة أيضا على ظهور القوافل ؛ حتى غلبت عليهم هذه التسمية . أو كانت لهم كذلك من قبل . ثم تدرجوا منها إلى التجارة على ظهور السفن .

(١) « شيشاق » ملك لبي حكم وادي النيل لعهد سليمان بعد أن تنازل عن الحكم له كهنة بني إسرائيل ؛ إذ كانوا قد استطاعوا بعد أسيرة الرماصة أن يؤسسوا مرة أخرى أسرة حاكمة ؛ وحينما هاجروا إلى الصعيد كانت هذه الهجرة لتأتي رسالة أيوب بالباشارة . وقد استطاع هؤلاء الكهنة أن يأخذوا المصريين بتعاليم بني إسرائيل ؛ وأن ينشروا بينهم مذهب أيوب في السحر . وكان يقوم على محبة الققط ، وتديلها ؛ فإن أدى نتيجة عين لمن يفقد الصلة الزوجية . قط أو قطة ؛ لتصاحبه أثناء الإختلاط الجنسي ، وإلى هذه تنسب الفكرة التي تشاع عن المصريين من أنهم كانوا يعبدون الققط . وربما ينسب إليها أيضا قوله تعالى : « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » ومن هذه الآونة شاع استعمال لفظ « هر » أو « هير » تسمية لقط . أو دلالة لما يأتي عنه من خير . وحين صقله اللسان العربي نقله من هير إلى خير ؛ في حين أنه لا يزال على نطقه الأصلي في أقصى الصعيد ، وعند قبائل من السودان .

ولقد احتضن هؤلاء اللببيون المعرفة على ما فيها من تضارب وتضاد ؛
و حين حسبونها وحدة متماسكة وقعت من نفوسهم موقع أى معرفة من عقول
العامة ، و بنيت فى أفهامهم على شىء من الصلابة ، ولم يتيسر للقوم أن يتحللوا
من فكرة إلى فكرة ؛ أو يخرجوا من رأى إلى رأى ؛ حتى تمت فيهم
المبادئ الثورية على نحو ما عرفنا به الخوارج .

... و حين ترك سليمان ذريته باليمن تركها ؛ نثرت بقية من سحر ورثته
عن جدونها بقميس ، وقد تضاعف حتى صار عرافة ، أو شعوذة ، أو تنقا من الشعر
فى بيت . أو بيتين ، وعن هذه البقية تمت فكرة التنبؤ بين الشعراء ؛ وما زالت
تلك ؛ حتى حملها الشياطين مع الشعر لكثير منهم .
ولقد كان السحر فى معظم أطواره يستغل فى بناء الحياة الزوجية على شىء
من الحب ؛ إذ كانت الصلة بين الزوجين فى شبه انحلال . ولقد استطاع سليمان
برسالته أن يصلح من ذلك ما كان فى الإمكان^(١) .

وقد عبرت باب المنذب إلى إفريقيا ذرية له . وقد استطاعت هذه الذرية
أن تؤسس لأيوب رسالة فى هذه البقاع ، وقد بنيت على فكرة « أحب شيئاً
أم لا ؟ » ، ومن هذه سميت البلاد حبشة ، ومن لفظ أيوب ، أو معناه « أى
« أب يؤوب » سميت أيضاً أثيوبيا ؛ إذ كان قد أحب العودة إلى أهله
أو وطنه باليمن ، ولكنه لم يستطع ! إذ كان قد اغتصب . وحينئذ أراد الله

(١) قد يمت إلى هذا الإصلاح إصلاح أزواج بعض الأنبياء كما فى قوله تعالى « وزكريا
إذ نادى ربه : رب لا تدنى فرداً : وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى
وأصلحنا له زوجة . . . الخ » .

على العودة عن طريق الوادى ؛ وما زال يجد فى المسير ؛ وفى تأسيس رسالته ؛ حتى وصل إلى الشلال الرابع ، وحينئذ كان قد أجهدته الحر ، وأنهبه التعب ، فقال له ربه : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » . ولعل ذلك كناية عن تأسيس عاصمة ؛ لطول إقامة ؛ نبناها ، وعرفت بـ « نباتا » وحين أدركته الوفاة تولاها عنه باليمين أخوان له . هما « بعنخي » و « سبا كون » أى « عن أخى هذا الملك ، و « سبا هى الكون » ، وما زال فى جهاد ؛ حتى كان لهما حكم على ضفاف النيل .

و حين غلبت آشور على الوادى ؛ وأرادته أن يكون للمصريين اضطرت بقايا هذه الأسر - من ليبيين . أو أثيوبيين أن تعاشر المصريين على التجارة على ظهور السفن ؛ حتى يستطيع كلٌّ أن يعود إلى وطنه . وقد استطاعوا مع المصريين أن يخلفوا الفينيقيين فى فن الملاحة . حينما أخذ هؤلاء ينحدرون إلى الجزر البريطانية ؛ كما استطاعوا أن يوجدوا فى النفوس شوقا إلى تعرف منابع النيل بما قصود على المصريين عن هذه المنابع ، وقد أثبتوا برحلة بحرية أن إفريقيا تحيط بها المياه ، ولكنها كانت فكرة ساذجة ؛ حين بنوها على أنها تنتهى عند باب المندب ؛ إذ كان نقطة انتقالهم إليها من آسيا ، وحين فهموا أن النيل ينبع من المحيط الجنوبى .

ولقد قام هؤلاء بحركة علمية فى الخفاء ، أو بعيدا عن السياسة أرادوا بها أن يبنوا معارف المصريين ، وحضاراتهم على شىء من الفلسفة ، أو التطلع إلى ما وراء الطبيعة ، وكانوا كثيرا ما يلتقون باليونانيين ؛ ليأخذوا عنهم خبرا أو معرفة لذلك فى طريقة أو مذهب . ولقد استطاع الزمن بفضلهم أن يوجد

(٦) بعث

على ضفاف الوادي فلسفة ؛ ولكنها كانت دينية^(١) أكثر منها عقلية أو تريد التوفيق بين بين .

وقد عُرِفَ هؤلاء ، أو هذه البقايا عند الرومان والإغريق بالبربر . من « البر » أي « القمح » . كما عُرِفَ الفينيقيون بالبريطان أي « حملة الأطنان من البر » .

وهؤلاء البربر ؛ أو جزء منهم ؛ وهم الأيبيريون قد اختلف بهم الطريق ؛ فجاعة آثرت شواطئ آسيا ؛ واستطاعت أن تعاشر الكلدان على قرابة ما من داود وسليمان ؛ كما استطاعت أن تسكون لها بينهم قومية عرفت بالموابية أي الرجعة إلى الوطن ، أو أي معنى آخر حسب ما يتضمنه اللفظ . وقد عرفوا حديثا بالأرمن ؛ بعد مصاهرات ، أو بقايا مصاهرات مع الآراميين . وأخرى وهي الجزء الأعظم . كانت تؤثر أن تسير غربا ؛ حينما علمت أن جزءا من قرابة الجدود قد انتقل مع بقايا الحثيين إلى اليونان . وقد كان الانتقال يغلب أن يكون من « تساليا^(٢) » وكان البعض حينما يضيع أمله في العثور على قرابة لجد من جدوده يقولون له : « Etly إيطاليا » أي إيت هذه النقطة من الأرض فقد طال فيها الغرس ؛ أو نمت فيها ذريته . وربما كان المقطع « يا » وكذا الحرف « Y » في هذا التعبير للدلالة على الكثرة والاستبعاد ؛ إذ يتضمنها كذلك في العامية . وهو الذي استبعد به الفينيقيون . أو استكثروا العودة إلى مدينة « صور » وكان من ذلك صوريا . أو التسمية لسوريا . وربما كان

(١) ليست العقائد الدينية إذ ذاك بحيث تصلح لكل زمن ؛ بل كانت دائما في حاجة إلى تغيير لتساير تطور العقل .

(٢) « تساليا » اسم مقاطعة ومنه لغة . تسأل ، يا أوياء مقطوع استكثار أو استبعاد .

هؤلاء الأيوبيون مؤسسى مدينة «روما» ؛ محاكاة للفينيقيين فى بناء قرطاجنة^(١)

وقد بذل هؤلاء جميعا مجهودا كبيرا فى تأسيس صرح المدنية والمعرفة ، كما كانوا وصلة خير بين شرق وغرب .

هذا وقد استطاع المليونون أن يتجهبوا إلى قرطاجنة مع الفينيقيين لتأسيس معرفة أو عودة لوطن . وما زال الفينيقيون أو البريطان يحمانون حب العودة إلى الوطن المقدس ؛ أو حب المساعدة لها ؛ حتى أخذ أشكاله المعروفة^(٢) فى التاريخ . وربما كان ذلك عودةً لأصول إلى أصول . أصول قد نمت ، واصلحت للبقاء إلى أصولٍ قد عركها الدهر ، فنجحت فى ابتلاء ، أو تجربة من تجارب الحياة . وتلك سياسة الله ، وسنته فى خلقه . وإن تجد لسنة الله تبديلا .

(١) «قرطاجنه» لغة من قرطان ثنية قرط ، جنة . أى غرس هنا وفى شمال إفريقيا ، وآخر على ضفاف الأندلس ؛ للوصول بهم إلى جنة آدم ؛ إذ الوحي كان دائما يذكرهم بها ، ويطلب منهم السعى للوصول إليها ، وحينما يشعروا أنها اعتقدوا أنها فى السماء ، وأن الوصول إليها يكون بعد الموت . وعلى كل فالفكرة صحيحة من كلا ناحيتها .

(٢) أقصد بذلك تكوين الإمارات الصليبية بالشام ؛ ورغبة الصليبيين فى امتلاك وادى النيل ، فى أواخر عهد الفاطميين ، وبعدهم فى عهد صلاح الدين الأيوبي ؛ وغير ذلك مما تسجله الآن أحداث السياسة والتاريخ . وربما كان ذلك ؛ ليظل من مات من الأصول على اتصال بنمو اللغة العربية ؛ وليكون من هؤلاء كتراجمة لمعرفة الشرق فى الآخرة ؛ وليكون شأنهم فى ذلك شأن المستشرقين فى الدنيا .

رابطته في اللغة

لعلنا فهمنا أن اللغة عما كانت إلا إنشائية ؛ وأن تسمية لا يصح أن تسبق مساهما في لغة العقل ، وكنظام من نظم التربية والتنظيم ؛ وأن تكويننا في الحضارة ، وبناء له في اللغة ما كان إلا اجتهادا .

ولقد أظن علماء اللغة في اصطلاحات سموها أسبابا ، وعللا تفاوتت بها لهجة عن لهجة ؛ وافترقت بها لغة عن لغة . ثم قالوا : إن اللغة كانت واحدة . وحينما عجزوا عن الربط بين هذه اللغات قالوا : إن أصلا من أصولها قد ضاع . ولقد فكرت كثيرا . كيف تكونت لغة ، وكيف افترقت إلى لغات : ففرضت أن الناس كانوا كتلة واحدة ، وفي صعيد واحد ، ثم تفرقوا أيدي سبا ؛ وانقطع بكل فريق أسباب المواصلات ، وأسباب التآخي والتعارف . وأن العزلة كانت تامة بين كل فريق وفريق . ثم أخذ كل يبنى لنفسه حضارته ، ويستنبط لكل تجربة تسمية ؛ لتكون له لغة . فهذا يبنى ويسمي بناءه عشا ؛ وثالث يسميه كوخا ؛ وثالث يسميه بيتا ؛ ورابع يسميه « هوس ^(١) House » وذلك يسمي حيوانه حصانا ، وثالث يسميه فرسا ، وثالث يسميه مهرا ، ورابع يسميه « هورس ^(٢) Horse » .

(١) هوس : هذا اللفظ يمكن إرجاعه إلى اللغة العربية باعتبار أن الهماء حرف تعريف في العبرية ، وبقي مع اللفظ حتى صار جزءا من الكلمة . أما بقية اللفظ في الهماء أي الوسوسة ؛ أي إلقاء الحديث في سر ، أو عن جان ، والناسبة في التسمية ظاهرة ؛ إذ إلقاء الأسرار دائما يكون في المنازل .

(٢) هورس : هذا اللفظ يمكن إرجاعه إلى اللغة العربية باعتبار أن الهماء أيضا حرف تعريف في العبرية . أما بقية اللفظ في الهماء وهو خضاب الخناء ؛ وهذا اللون يغلب أن يكون لونا لهذا الحيوان ومنه كانت هذه التسمية .

هذا ما يقال ، أو تحديد لما يكون عند وقوع معرفة ؛ أو تجربة أخرى
للسكينة ووعاء . أو لباب ونافذة ، وهذا فيما يضطر إليه الإنسان من وسائل
العيش . أما في الكماليات فسيكون الأمر فيها على أشد الافتراق . فقد لا يتفق
الزمن بينهم في بناء نوع واحد منها ؛ وقد يسرع واحد في الإنشاء والتجديد ؛
وقد يقف ثانٍ عند الكفاف ؛ وقد يتردد آخرون ما بين إنشاء ، أو وقوف على
قديم . فإذا فرضناهم جميعاً قد عادوا بعد زمن ما . . . إلى تعارف ، وإخاء
كان لكلٍ لغته على ما فيها ، أو بينها من تفاوت في نقص أو كمال ؛ وكان
من الصعب أن تفهم أمة أمة ؛ أو يقف فريق على معرفة فريق .

حينئذٍ ، وعلى هذا الفرض فهت سبباً واحداً فرضته لهذا الافتراق ؛ واعلمه
لم يكن من بين هذه الرموز ، وتلك الاصطلاحات . فهت أنهم لم يكونوا على
اتفاق عند التسمية لكل جديد . هذا إذا فرضناها عزلة تامة ؛ ولكن من
يتبع أحداث التاريخ سيجد الأمر كان على خلاف ذلك ؛ وسيجد أن الناس
كانوا على تعارفٍ وصلة ؛ وأنهم كانوا على لغة واحدة إلى عهد قريب ؛ وأنهم
كانوا على تقارب في الوطن ، أو في حالة تركيز . وإن هذا السبب الذي
فرضته لا يتحقق أيضاً تطبيقه إلا عند الميلاد . أما فيما قبل ذلك . أو ما دون
ذلك من أسباب فلا موضع له من عقل أو تفكير .

هذا إلى أن اللغة من قبل ما كانت بالكثرة في الألفاظ بحيث تصح
لقسمة . أو تسمح بافتراق ؛ إذ كان اختراع لفظ ، أو تكوين شكل كتابي
لا يقل في قيمته أو ظهوره عن حدثٍ في عالم التأليف ؛ أو استنباط في
نظريات الفلاسفة والعلوم . وكان سرعان ما تناقله الألسنة ؛ ويشاع بين الجميع .

هذا كان عمل القوم ، وذلك تجديدهم . لنا ، ولهم . وإنه مما لا تقع به
فرقة ، أو يصح فيه اختصاص .

قد يقال إن اختلاف البيئة له أثر في تفرقة ، أو اختلاف . والواقع أن
البيئة واحدة في كل مكان . فالشجرة على ضفاف النيل هي الشجرة على ضفاف
الفرات . والأسد هو الأسد في كل مكان . وإذا تعددت تسمية لهذه . أو ذلك
فستتجمع هذه التسميات ، ويتعارفون فيها على الشكل والصورة . هذا فيما
تساوى فيه كل بيئة ، أو مجموعات متشابهة منها . أما فيما ينقصها ، أو تتفاوت
فيه فسيصل إليها عن تبادل تجاري ، أو تعارفٍ سياسي .

هذا وإن أمما أو قوميات يُدَوَّن لها التاريخ كانت على عنف في السياسة
بمحيث لم يتيسر لكل واحدة أن تحتفظ بمعرفتها ، وتجاربها في لغة وحضارة .
ولقد كان تفاوت بين حضارة وحضارة تفاوتاً بين تكوين لغوي
وتكوين وإن الأرقى من ذلك إنما يكون طعمة لقوم أولى بأس شديد
يسكنون الصحارى والقفار ؛ وإن الحالة بعد كل بحث أشبه بحالتنا بعد الإسلام ؛
وإن إرث كل نبوة إنما يقوم على عمليات مزج بين ما تجمع من ألفاظ ؛ ليكون
لغة لعصر جديد

هذا ما رأيناه في فناء لغة عبرية ، وأخرى سريانية ؛ لتخالفهما لغة عربية ،
وهذا تقدير لما لم نره لما سبق من نبوءات ، وإنه لإرث باق ، وتحتفظه كل لغة في
كثير من الألفاظ ، وإنه لن يقف عند « أب » أو « أم » . وغيرها من
ضروريات الحياة .

ولقد كان من الخير أن كتبت الأمية على سكان البوادي ؛ ليتيسر لهم المزج
بين هذه الألفاظ . بصرف النظر عن تحديد في النطق تحدده لغة الكتابة ، وحتى

تبقى لكل لفظ حريرته في التعبير . بصرف النظر عن أحرف العلة ، أو أحرف الإيمالة ، أو تقارب في المخارج . وإن ذلك بعد وسيلة لتزويد اللغة بثروة لا بأس بها من الألفاظ ، وأشكال الكتابة ، والتدوين ، ومنها . أو عنها يتولد اللفظ للمعنى الجديد .

إذا فلنعدّ إلى الماضي لنعرف كيف نشأت اللغة . . . وكيف أخذت تفريعاتها الجزئية ؛ لتتكون لغة لعصر جديد .

لقد كان الإنسان حينما حاول أن يضع لنفسه لغة . يضع للحالات الفكرية والانفعالات النفسية التي تجول بخاطره أشكالا ورموزا اعتبرت فيما بعد أحرفا . وكان يماثل في الرسم بينها وبين صور من الجسم أو جزء منه . فالليم مثلا كان يقف في التعبير بها وحدها عن الأمومة ، ويرسمها بالشكل الذي تكون عليه الأم أثناء الحمل . أما الألف فلشكاه أثناء ما كان يصدر أواخره — أي واقفا — وما كانت الأم كثيرا ما تتدخل في هذه السياسة ؛ وكثيرا ما كان يخلف الأب عليها أكبر أفراد الأسرة ؛ لتبقى الملكية مركزة فيها — جاء فيما بعد من ذلك لفظ « أم » . واللفظ « أسرة » أما السين فلينذا الفرد . وأما ثلاث سنن لما فلعقود ثلاثة من عمره . أي حينما يبلغ الثلاثين ؛ وحينما يتكامل نمو أسنانه وأضراسه — وعند ما أمكنه أن يوجد للقراءة والنظر حرفا هو الرء استطاع أن يلحقه مع حرفه إلى الألف فكان هذا اللفظ . أي « أسرة » ، وربما جاء على هذا النمط لفظ « أمر » . وحينما كان يضاف هذا الحرف — أي السين — في التسمية مع الأعلام — عربية أو أجنبية — كان رعاية بجانب هذا الفرد في شؤون السياسة . أما إذا أريد به الحسالات

الفكرية التي تحول في النفس فكان يقامُ منه حرف الراء . فنشأ لفظ
— « رمس » — إشارة إلى تلمس روح الأم في العابد ، وقد انتقل هذا
اللفظ أخيرا إلى معنى قبر ؛ كما تنوع من « رمس » إلى « رمز » بحسب المقاربة
في النطق بين سين وزاي .

أما هذا التمرد إذا أريد به فردا آخر . ومن الأسر التي لا تقوم برئاسة
في سياسة ، أو تعاليم فكانوا يخصصون له الشين . وقد تنوع فيما بعد إلى حاء
للمصاهر ؛ كما اختص به اسم من الأسماء الخمسة ؛ أو خاء للشقيق بعكس التاء ؛
إذ كانت رمزا للأخت . أما التاء فكانت للخالة . . ؛ أو الأخت البعيدة ؛
كما في « أشيوبيا » ولما كثرت الإخوة كان لهم حرف الواو على عكس ؛
أو مشابهة في الرسم من حرف الميم ؛ أو للدلالة على أن تموهم كان من الأم ،
وفي حضانة الأم .

وحيثما كانت تتداخل دلالات هذه الأحرف بعضها ببعض يبدون
للمعنى الجديد لفظا من حرفين ؛ فنشأت المقاطع التي ندرسها في علم اللغة
للكلمة وكان من ذلك : —

« يم : أو yem » رمزا للطفولة ؛ وكثرتها أثناء الحضانة ؛ إذ كانت
الياء دلالة لذلك ؛ كما في المقطع — يو — في العامية . وكان يضاف هذا المقطع
إلى تسمية للأطفال أثناء قيامهم ، أو تمرينهم على الحرف ؛ كما في إفريم .
أو إبراهيم — من إبر الخياطة . أو من أف : علامة تضجر . وقد بقي على
شكله الصوري بمعنى « بحر » ؛ كما أضيف إلى تسمية للأبطال أثناء تمرينهم على
الملاحة . وكان منه بطليموس : أي « بطل يم » وحين توسطته الواو كان
لفظ — يوم — على دلالاته الأولى — أي جماعة أو كثرة من الإخوة

زمن الطهى . ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ
لِذِكْرِ اللَّهِ » . وقد تنوعَ إلى « آن » أو « أوان » وفي الإنجليزية إلى now
أما الآنية نفسها فأخوذة من حرف النون ، وقد بقي آخذاً شكلياً في الكتابة
وقد تنوع معها في المعنى هذا المقطع إلى مقطع جديد هو أون « ouن » وكان
رمزاً لتعليم الأنوثة فن الطهى . على العكس من المقطع . أور « our » . وهذا
المقطع الأخير إن توسطته الميم بدل الواو يكون بمعنى إصدار الأمر من فرد
واحد لا من جماعة ذكور كما مرَّ . أما إن توسطت الميم المقطع « أون » . فيكون
بمعنى طهي الأمومة ، أو رمزاً للزواج بها من أى فرد بعد وفاة الأب ؛ لتبقى
الملكية في نفس الأسرة ؛ كما في « أمون » . أما إن توسطته التاء فيكون رمزاً
لطهى الأخت ، أو الزواج بها ؛ حين تفضل الأم إلى سن اليأس ، أو حين يُراد
خروج ملكية من أسرة إلى أسرة ؛ كما في إخناتون ، وأسرة إخناتون ، وقد
بقي هذا المقطع . أى . « أتون » في اللغة العربية اسماً لأخدود النار . أى « الكانون »
وقد ظهر الأخير في « فولكان » أو « بركان » وكان منه فعل السكينونة —
أى هذا الغذاء ، أو هذا الشيء كان خضراً أو ... أو ... ثم صار طعاماً أو ...
بعسلية الإحراق أو الطهى أو . . . الخ .

أما الكاف فكانت دلالة على نُموٍ وَكِبَرٍ ؛ كنتيجة لهذه التغذية . وأما
الهاء فكانت دلالة على هذا النمو ؛ حينما يكون في غيبة عن المشاهدة ، ورؤية
العين ؛ لذلك كانت تطلق على الجنين أثناء تكوينه ، ومن هذين الحرفين كان
المقطع « هك » في « هكسوس » ؛ وكذا لفظ « كاهن » .

هذا وقد تنتقل جماعة ومعنى من معانى ألماظها على حرف ، وقد تنتقل

أخرى، وهذا المعنى على حرفين ؛ في حين أن هذا المعنى في المنشأ يكون قد أخذ تكوينه بعد هذه الفرقة من أحرف ثلاثة ؛ أو أكثر؛ فنشأت عن هذه التفريعات الجزئية ؛ التي تتفرق بها اللغات إلى حين .

فمثلاً لفظ « شِيمِ » أو معناه كان في الأصل دلالة على تعليم ، وسعى من أجل العيش ، وقد تكون عند قوم من الشين فقط . وهم القائمون بأمر التربية لأفراد آخرين من غير أسرهم . وقد صار منه عند آخرين شَبَّ . أى « نَمَى » عندما تناول الأب هذه التربية ؛ إذ شاركت الشين دلالة أبوية للبلاء . وعند ما ثلَّتْ بالعين عند قوم كان دلالة لقدرة على متاجرة ، أو بيع ، أو مبادلة عين بعين ؛ إذ هذا الحرف . أى « العين » لهذه الدلالة في الأصل . وقد وقف هذا اللفظ أخيراً عند معناه المعروف .

ولفظ : « Drum » . بمعنى طبل قد أخذ تكوينه على هذا النحو وهو في الأصل من الضرب، وقد بنته جماعة على الدال والراء ؛ فكان لفظ « دِرَّة » وافتقرت به . وحين ثلَّتْ بالبلاء كان دلالة على ضرب ، وتأديب من الأب . وحينما كان ذلك التأديب من الأم ثلَّتْ بـ « m » ثم صار أخيراً ؛ وبعد نجاح هذا التأديب بمعنى طبلٍ وزمرٍ . وربما كان منه إضرام النار في الأفراح لطهى الطعام . أما في اللغة العربية فقد صار إلى ضَرْبٍ بصرف النظر عن تقارب بين دال وضاد ؛ أو بقي بمعنى « دَرْبٍ » أى طريق .

أما الطاء فكانت شكلاً ، ومعنى دلالة لبطن . أو طعام . وإن بقيت ، أو خففت . فمطوط . أو قوت ؛ ومنها قودٌ . أو أودٌ .

وقد كانوا يعبرون عن مجيء الأب بطعام ؛ يطهى في آنية ؛ ليغيباً في البطن .

بلفظ بطن ؛ إذ لم يكن لديهم لكل معنى لفظ . أو تعبير ؛ ثم انتقل هذا اللفظ أخيرا ؛ تسمية لهذا الجزء من الجسم . أما الباء فاللأب . وأما الطاء فالطعام . وأما النون فاللآنية . وحين دخلته العين دلالة على انتهاء عملية البيع ؛ وحين استعويض عن الباء بالميم جاء لفظ طعام ؛ لتدخل الأم فيه بسياستها في عملية الطهي . هذا والنفي في كل لغة مبني على النون وحدها . أو مع حرف آخر ؛ كما في « أولن » ؛ وقد تسقط النون ؛ إذا أمكن لهذا الحرف أن يخلفيا في النفي مع حرف آخر . وهو مبني على . « هل في الآنية شيء أم لا ؟ » وقد أخذ فعليته مع الفاء في اللغة العربية من الهيروغليزية من « منف » أو « منفيس » أي « نقص السكان بالوفاة موجود في هذه المدينة » .

والمقطع سَمَّ أو سَوَّم . من الألفاظ ، والمقاطع ذات الدور الأول في تكوين اللغة ؛ وكان يعبر به عن حالة تنديد من بقية أفراد الأسرة ؛ إذا استأثر أكبر أفرادها بالأم ؛ وكان في حالة ضعف يستوجب ذلك . أو كانوا ؛ بحيث يأخذهم صوت عذاب منه .

هذا . . وإذا اعتبرنا أحرف العلة ، أو أحرف الإمالة مما اختلفت به لغة عن لغة ؛ أو لهجة عن لهجة ، وأمكنا أن نصرف النظر عنها ؛ لإرجاع اللفظ إلى دلالة حرفية ، أو مقطعية . . . استطعنا أن نعرف تطور اللغة ، واستطعنا أن نعود بكثير من الألفاظ الإنجليزية . أو اللاتينية إلى لغة عربية .

فمثلا « Four » بمعنى أربعة من « بؤر » أو « بؤرة » أو « بئر » ؛ إذ يخفر بأربعة أضلع مستوية . وحين أراد الأوربي أن يشتق لفظا لهذا العدد ينطق به أخذه من تسمية هذا الشكل الهندسي . وربما كانت الدلالة الأولى

هذا العدد الباء مع الراء بأي وضع ؛ وحين أريد به التقدير في مبادلة . أو يسع بـ وغيره دخلته العين ؛ في حين أنه اختصه القيثاغوريون بهذا الإيهم .

ولفظ « Five » بمعنى خمسة من « بَيْب » أي « باب » وهو في الأصل من اللغة العربية ، وماخوذ من باب الكيف ؛ إذ يمثله في الشكل . وحين أريد له عندنا لفظ ينطق به اختير له أن يكون من دلالات الأحرف التي يتكون منها لفظ خمس ؛ ومن عدد الأزواج التي يمكن أن تنتج الأم ذرية معهم قبل سن اليأس ؛ في حين أنه بقي عند آخرين في نطقه على الأصل .

ولقد كان التنوع في النطق بين كاف وقاف ؛ أو بينهما وبين الهمة كما هو شائع في العامية من الطرق التي كانوا يكثرون بها الألفاظ ؛ أو ينتقلون بها من معنى إلى معنى آخر ؛ ولو بغير مناسبة .

فمثلا لفظ « أنمان » في العامية بمعنى « شعبان » وقد أخذ منه للعربية الصحيحة لفظ « كزمان » ؛ إذ كان عامي اللغة قديما أسبق إلى اللسان من صحيحها . ولفظ « OLL » هو لفظ كل ؛ وقد هاجر به الفينيقيون قبل أن يتنوع النطق به بالكاف ؛ وكان يُعبّر به عن تحول الجماهير ؛ وهجرتهم من شرق إلى غرب . وقد بقي في اللغة العربية بهذا المعنى ؛ كفعل أمر من آل يؤول . وكان يقوم مقامه المقطع « جَم » أو « جَم » وهو لا يزال في العامية بمعنى جاءوا ؛ وحينما كانت تتجمع هذه الجماهير ؛ لبيع يضاف له العين ، وكان من ذلك لفظ « جمع » أو « جميع » وحينما كانت تتجمع من أجل السياسة أو الدين يضاف له « أهور » وكان من ذلك لفظ « جمهور » .

أما التنوع في النطق بين « زاي » أو « ذال » أو بينهما وبين « السين »

و « الهاء » فأسر شائع ومسروف ؛ ويمكن به إرجاع كثير من الألفاظ اللاتينية إلى حظيرة اللغة العربية ؛ كذا انتسويح بين « دال » و « ضاد » أو بين « فاء » و « باء » كما مرَّ .

والهاء حينما أريد بها أن تكون دلالة على حالة غيبية تُؤثِّرُ في السكون أُتِّخِذَتْ حرف تعريف للأشياء التي أمكن الوصول بها إلى معرفة ؛ وقد لازمت كثيرا من الألفاظ ؛ حتى صارت ؛ كجزء من الكلمة ؛ وحين جدَّت حروف أخرى للتعريف « كأل . أو La . . أو The » تُنُسِبُ الهاء كحرف تعريف ؛ وتُنُسِبُ معها عامية هذه الألفاظ .

فمثلا لفظ « هامان » في الأصل بمعنى الرجل ؛ وقد أسرع الفينيقيون حين أخذوه بهذا المعنى وهذه الأحرف قبل أن تُلَازِمَهُ الهاء . وهو من الأمنية التي يرغبها الأب لبنيه ؛ أو من قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ . »

أما « Hand » بمعنى « يد » فقد لازمتها الهاء ، وتُنُسِبُ فِيهِ ؛ وهو مأخوذ من الند . أي « المائل » ؛ إذ أن إحدى اليدين لا تفترق في شيء عن الأخرى في الشكل والمثالة .

هاتور : لفظ مكون من هذه الهاء . ثم المقطع « تو to » . وكان يرمز به لقرني البقر . ثم الراء ، وحين انفصلت الهاء ؛ لتخالفها « أل » كحرف تعريف صار تسمية لذكورها ، ومن هذه الدلالة الإثنية كان لفظ « تورا » أي للدور الثاني في تكوين العقيدة بعد إبراهيم ، ومنها أيضاً « photo » بمعنى مصور ؛ إذ عمله يوجد صورة ثانية على الورق للإنسان . وربما كانت الفاء في المقطع

الأول باء الأب ؛ إذ يأتي الإبن دائما صورة ثانية لأبيه ؛ وربما كانت التاء أيضا لهذه الدلالة حينما كان يكثر الزواج بالأخت . ولعلها كانت الأصل .

وحين انفرطت العقيدة الإسرائيلية في شأن يهوذا قبيل الميلاد اختصت اللغة الإنجليزية من اسمه بالذال كحرف تعريف فقط . أما البدو فقد أخذوا منه الهاء ؛ ليتم المقطع « آل » لفظَ جلالة له سبحانه .

وقد كان انتقال حرف « الشين » في النطق إلى « هاء » حينما أمكن للعقل أن ينتقل من محسوس إلى معقول ؛ ليبدل اللفظ بها . أو معها على روح ، أو غيبة في ضمير ، أو حديث مضي ، أو يرجى له عودة ، أو هيئة حسنة مرجوة ؛ كما في لفظ « أهرة » ومنه كان لفظ « آخرة » . . .

وقد كان هذا الرقى العقلي حينما أمكن للكاريين أن يتخلصوا من « آشور » كإنسان ، وحينما أرادوا به قوى من الخير تسيطر على الكون ؛ لذلك انتقل هذا اللفظ معهم إلى « أهور » أو « أهور مازدا » . ثم رمزوا للذرية بتغلب عليها شر ، أو لتناسل يقصد به الوصول إلى « آشور » كإنسان باللفظ « أهرمان »

وحينما اتخذ المقطع « آل » حرف تعريف كان قد تنوع إلى « آل » بمعنى « أهل » ثم بمعنى سراب ؛ إذ كان هذا اللفظ في الأصل بمعنى « سيرة أب كامنة في الطفولة » ، وقد شاركه هذا الأخير . أي « سراب » في معناه الأخير . أي « تربية للذرية ؛ ثم فناء ، وتمسك بمن فني على غير طائل » وكان من ذلك على أي معنى « سرايوم » على العكس من « رمسيوم » ، وكان أيضا لفظ « هبل » عند العجز عن الوصول إلى « آشور » أو « إل » كإنسان ، أو التردد في شأنهما ؛ إذ المعنى بعد اختزال الأحرف « هو . . . بل ننتظر

غيره ، ، ومن الأخير كان لفظ « Double » . أى التمسك بناحيتين من الأمر حتى تظهر الحقيقة . أما الدال فاسم إشارة . وأما الباء فباء الأب ؛ إذ به تقام ، وتكون الأسر . ثم صات للسببية .

وحينما بلغ اليأس من بنى إسرائيل مع « يهوذا » أو من « آشور » تسموا وسموا كثيراً من ذريتهم « بأمون » على ذلك الإله ، أو الرئيس المنتظر ؛ ولكن بالاستغناء عن الهمزة بالعين ، فقالوا : « عمان » و « عمون » و « عمانويل » وقد تدرج ؛ ليكون تسمية اعمومة

ولقد كان وضع الألفاظ يراد به فى الأصل أن يطابق حالة اقتصادية أو اجتماعية ، أو موازنة بين شيئين فى زمن ، أو حجم ، أو فى وزن وكيلى .
من ذلك : —

« Minutes » بمعنى دقيقة ، وهذا مأخوذ من « مَنَ » أو « منا » وعاء صغيراً لكيلى . « أوقيانوس » من « أوقية » ، « No » ... الخ. أى . « المحيط لا يستصغر شأنه » .

« نوفمبر » من « No » ، « فم » ، « بر » أى لا تتوسع فى غذاء من « بُرٍ » فى هذه الفترة من الزمن ؛ إذ الحصول على نهاية و بداية ، وربما وصلت حالة التنديد والمؤاخذه إلى الدرجة التى أوثر لها لفظ « ديسمبر » تسمية للفترة التالية من الزمن ، وربما كان تنديدا من نوع آخر ، ولذين يتناولون غذاءهم فى هذه الفترة من الأذرة ؛ لكثرتها إذ ذاك ؛ ولعلمهم كانوا يدافعون عن أنفسهم حينما سموا الفترة السابقة لهاتين بـ « أكتوبر » أى « أخت بُرٍ » ؛ وربما اقتصر البعض أن يكون البرغذاء للضيوف فقط ؛ كما هو شائع فى الريف . .

وقد كان من ذلك لفظ « برمودة » من « بر » ، « مَوَدَّة » . وربما كان من الأخير لفظ « موضة » أى حديث . وربما كان منهما « Moudern » أو « Moder » .

« ودقديانوس » : من « دق » ، « اليد » أى « باليد » ، « يا » ومن الأخيرين كان لفظ « ليديا » إسم مقاطعة لشعب إسرائيل خلف الحثيين على آسيا الصغرى . وبما كانت تؤخذ من موائئه حمائل البر الواردة من مصر لتوزع فى روما . ثم « no » والمعنى الجملى « لا سبيل يدق لليديا ؛ بل يدق لأهله » . ومن ذلك كانت التسمية عندنا بـ « دقهلية » ، « دقادوس » .

« دَيْن » : من « دن » اسم صاحب مصر وصديق يوسف . وقد توسطته الياء ليتخذ قديما تسمية لمقدار من الوزن ؛ ثم سميت به حقوق مستحقة . وحين استعمل الكى بالنار ؛ لتأديتها كان منه « دينار » . أما الدرهم فمن « دِرَّة » ، « هم » أو « غم » أى الدرّة غم . أو إرغام ؛ لأداء الحقوق . ثم صار اسما لهذا القدر من النقود ؛ ويعرف فى اليونانية بلفظ « دِرَاحمة » .

من هذا نرى أنهم كانوا يسيرون فى بناء اللغة على دلالات حرفية لا تقف عند باء لأب . أو ميم لأم ، وأنهم كانوا يتدرجون فى معانيهم من كلى إلى جزئى ؛ وكثيرا ما كان يصل اللفظ ، أو التعبير مع هذه الطريقة إلى تضخم بالحروف ؛ وعدم انسجام فى النطق .

وحينما هاجر الفينيقيون إلى الشمال ؛ وانقطعت بهم العودة كانوا قد أخذوا معهم الكثير من هذه التراكيب ، وبنوا عليه الأصل اللاتينى ؛ الذى تفرعت عنه اللغات الأوربية فيما بعد ؛ لذلك غلب على معظمها السماع ، وامتثلت

(٧ — البعث)

الألفاظ بالأحرف ، والمقاطع المبتورة في معنى . أو نطق . وحينما قام النبط بتحليل الألفاظ ؛ لتطابق تجزيها في المعنى كان الفينيقيون يبيدوا عن هذا التجديد .

وحينما أوتر التعبير بدلالات مقطعية ؛ كنتيجة لهذا النهوض شاعت التسمية بالإضافة ، والتركيب المزجي ، والمثل السائر ؛ كما في « كيليو بطره » أي « كيل كثير ، واطر نعمة من الرعية » . ثم « كيليو منيس ^(١) » أي « قد صودق على المطايا ، أو الدخل بكيل كبير وصغير » . أي « من وكيلة » ، وقد سمي به رئيس مالية مصر في عهد الإغريق . ثم « كرا كلا » اسماً لأحد أباطرة الرومان . أي « حتى كرتى الترع فكلا » وكان ذلك قد أهمل في عهده ؛ حتى ساء المحصول الزراعى ؛ وكانوا يتخذون اسمه للتنكيت به ، والتشهير بضعفه في مجتمعاتهم . وأما « أوردن » و « أوردشير » فردودينية ، وتعاليم خيرة ، أو بين خير وشر . وأما « كايلا ودمنة » عنوانا . أو تسمية فردية . فدوامنا كدوام ليلة وفناؤنا كفناء دمنة ؛ وهو تعبير يطابق نظريات الهنود في معنى الحياة ؛ كما في قوله تعالى : « إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ، وَنَحْيَا ، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » كما يتفق مع عقليتهم في تحديد زمنى . أو عددى في مثل سبع ، أو شهر با ، أو شهر زاد .

هذا ولقد استطاعت اللغة العربية أن ترقى بفضل الأنباط ؛ وتكون لها ثروة في اللفظ ، وأجرومية في التعبير بفصل كثير من الأحرف ، والمقاطع ؛ لتكون أدوات استفهام أو نفي . أو أسماء إشارة ... الخ . أو لترفق بالألفاظ في حالات مخصوصة ؛ كمنقلها من أفراد إلى جمع مع الواو فقط . أو الواو والنون ... وكما في تدنية أو إلحاق بضمير . أما لاتينية ، أو انجليزية ، أو عبرية ، فقد بقيت

(١) المقطع « يس » في كيليو منيس يضاف كثيرا إلى الأعلام الأجنبية . ومنه في الأصل — كثير من الأسر الكبيرة ؛ والتي يملكها أفراد ذوو شأن تؤيد الملك ؛ وتناصره .

ألفاظها مع هذه الأحرف والمقاطع دون أن يعرف لها أساس ترد إليه (١).
وحيثما سيطر الإغريق على الحياة العلمية في الشرق كثر استعمال حرف
« الطاء » . وظهر كثيراً في مثل « قيراط » ، و « أبيقراط » . وقد امتازت
به لغة ، أو نهضة طيبة عرفت لذلك العهد ؛ وكانت تنتجع للصوفية ،
أو المتمسكين بزهد ، وتكشف طريقة أخرى في الحياة ؛ ليصح الجسم بالتضدية
وينسوا على بسطة في العيش . وقد انتجت هذه النهضة دولة حملت لواء
الطب الغذائى حول دجلة ، والقرات بعد تفرق الإغريق ؛ ودام لها الأمر
أكثر من أربعين سنة ؛ وقد عرفت بالدولة الباراذية ، أو البارانية ، أو البرطية
وعرفَ ماوكها بأسماء تقرب لفة من قطع الخبز ، وهشم الثريد ؛ وربما كانوا
في ذلك على عهد مع الهاشمية في إكرام ضيف أو إغاثة جوعان .

(١) هذا الموضوع العمومى أريد به الإرشاد يقط إلى كيفية الربط بين اللغات على نحو
ما بينت . وإليك زيادة على ما سبق توضيح لبعض كلمات وتعابير : فمثلا : -
« إنجيل » : أى الآن قد جاء دليل أو قرب أن ينزل على الإنسانية بآياته . وحين
أضيف إليه المقطع « يس أو يش أو يز » كانت كلمة إنجيل . . . الخ .
« كومبليت » : أى الكم والعدد أصبح ببيت أو مع تمن ؛ إذا أريد له زيادة . وهى
من « كم » ، « الباء » ، « ليت » .
« صالون » : وهى من « سولون » إسم المشرع الإغريق ؛ إذ كان قد اكتسب لونا
جديدا لبشرته من الغذاء المصرى بعد أن كان شاحب الوجه من تصوف درج عليه بعض
الإغريق . والمعنى : انظر . أو اطلب لنفسك لونا آخر بالحلاقة . أو الغذاء .
« نوت » فى الإنجليزية بمعنى مذكرة : مع عندنا « نوته » والتسمية مأخوذة من
النوتى « ربان السفينة » وهى من ألفاظ الفينيقيين ؛ إذ كانوا يدونون معارفهم التى
يأخذونها من الشرق فى مثل هذه المذكرات . كذا لفظ « ليصا » بمعنى حبرة من
لاس يابوس . وهو كذلك فى الإنجليزية ولكن مع تاء التأنيث المفتوحة كما فى « جوزويت »
« جون » بمعنى إصابة الهدف مأخوذ من الجون « الفرس الأسود » . والمناسبة ظاهرة
« كورب » فى الفرنسية بمعنى انعطاف أو انحناء مأخوذ من « قرب يقرب » ؛ إذ السائر
بعد شوطه فى المسير ينعطاف عند ما يقرب من منزله أو حانوته . . . الخ .

وقد كان هؤلاء يمدون كثيرا من مدن الفرات بغلال المصريين ؛ حتى غاب على البعض تسمية مصرية . وقد عرفت بذلك مقاطعة سميت « آدمينا » أى « آدم مينا » . ثم عرفت بعد . . . بالرّها ، ونصيبين . أى « الرخاء ونصيب ونصيب » . ومن « مينا » كان « ميناء » أو « مان يمون » ومن بارانية ، كان فى العامية « بَرْنِيَّة » . « لَوَعَاء من الخزف » وفى الأجنبية « بار » ثم « بورت » .

وقد عرفت لذلك لغة هيراطيقية بدل هيروغليفية ؛ وكلا التسميتين تقرب من عربية أو عامية . أى « الخير فى غلاف ، أو طاقة » ؛ إذ كانوا يحفظون مستنداتهم العلمية فى لفائف البهاشم ، ومنها كانت الطاقة للقدرة « وطاقة من دبلان » ، ثم أنطاكية بتخفيف . أو على الأصل . وأما المقطع « أن » فللوقت . هذا وربما أريد بذلك حفظ المعرفة ، وبقايا العلوم بعد عبث الآشوريين بالتدوين ، والذي استمر فى نفسيات البعض ؛ حتى هدمت به مكتبة الاسكندرية ذلك الحادث الذى اتهم به عمر على غير قصد .

رابطة في العقيدة

لقد وضعنا كيف كان بناء . أو تكوين للعقيدة . ووقفنا فيه عند «أمون» أو «آشور» أو «إيل» ، وقد بقيت هذه العقائد ، أو هذه النواحي في العقيدة على صلاتها . تمد هذه تلك بفكرة . أو رأي ، وتوازن أخرى بين ناحيتين في عرف ديني ، أو نظام عمراني ؛ حتى آتت كل عقيدة ثمرتها في دين ، أو معرفة ، أو حضارة .

إن الله سبحانه ما كان يقصد من عبادة حول هذه العقائد إلا تمسكا بالماضي ، أو الأرقى منه ؛ لينبئ عليه جديد ، وإنه كثيرا ما كان يتركها للرؤساء وزعماء القبائل ؛ ليكرونها بها شخصياتهم ، ويبنوا عليها رياستهم ، ولكن ما لبث أن اعتقد المصريون ، أو عامتهم ألوهية لرئيس ، أو في رئيس ، لنجاح سحر على يده ، أو يد أعوانه ، وسرعان ما تعددت آلهتهم ، أو رؤسائهم ؛ حتى أصبح للجنائز إله أو رئيس ، وحتى أصبح الأمر في حاجة إلى تعديل ؛ يقفوا به في عبادتهم عند أمون .

إنه سبحانه ما كان يقصد من هذه العبادة إلا توحيداً في الرئاسة لكل أمة ؛ حتى يستطيع عند رقيها الفكري نقلها من فردية في الرئاسة إلى فردية أو توحيد في السماء ، ولكن سرعان ما انتقل المصريون من «بتاح» إلى «أمون» أو «رع» أو «أوزوريس» ، أو جمعوا في عبادتهم بين ثلاثة أو اثنين .

لقد كان كفي للمصريين أن يقفوا في عبادتهم عند أمون ، ولو أنهم

وقفوا عنده اسلمت لهم حضارتهم، واستضاعوا معه أن ينوهوا على شيء من الفلسفة والعلوم العقلية .

إنه سبحانه كان يخشى أن تُبنى عقلياتهم على خطأ في فهم معنى رئاسة في سياسة . أو دين ؛ حتى لا تنطاحن عقلية بعقلية ، أو تنور جماعة ضد جماعة ، وحتى لا تتكون بذور سيئة في الدين أو في النفوس ، يصعب على الأنبياء اجتثاثها في عصر انتقالٍ للعبادة ، وحتى لا تؤدي بهم إلى إشراك ، أو تجهيم لسياسة من السماء ؛ لهذا ، أو غير هذا وقع المصريون تحت ضغط من الهكسوس ، وغير الهكسوس ؛ حتى صدق عليهم قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّينِ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّعْرَاتِ ؛ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ » .

لقد بقي الأمر على فوضى في العبادة عند المصريين ؛ حتى بعد الهكسوس وبين صحب الحياة ، وفي تلك الآونة من التاريخ . أى « في عهد تحتمس الثالث » تنبهوا إلى ما كانوا عليه من خطأ ، أو أرادوا أن يأخذوا شيئاً عن آشور ؛ فنشأت بينهم فكرة ميلادٍ ، وتطلع لجد من بنوة ، ولكنهم ما أرادوه من مستقبل ؛ كما أراد آشور ، وإنما قصروها على الحاضر فقط ؛ ولأمون . دون غيره من معبودات ؛ لتستند عليه وحده نظريتهم في عودة الروح وقد نسجوا ذلك في قصة سموها « الميلاد السماوى » وكان صاحب هذا الميلاد تحتمس الثالث . وقد انتقل إليهم هذا التقليد الدينى مع الفينيقيين عن طريق التجارة ، وثبتت دعائمها في عهد الملكة حتشبثوت (١) .

حينئذ استطاع أمون أن يقاسم آشور غنيمة في سياسة أو عقيدة ، واستطاع

(١) « حتشبثوت » من هيت ، شب ، ونواء أخت ؛ إذ كانت « الحاء » تقوم مقام الحاء كما في « حاتور » و « حرحور » .

بعض المصريين أن يعرفوا شيئاً عن التوحيد في عهد إخناتون .
واقدم جاء موسى على قلبه ، وأراد بالقوم نقلة عاجلة ، أو كاملة إلى معبود
واحد . هو الله ؛ كما أراد أن ينقل العبادة له سبحانه من إنسان . أو رئيس .
عند ما أريد عليها من السماء ، وعند ما خوطب في هذا الشأن بقوله تعالى :
« فَلَمَّا آتَاهَا نُورِي . يَا مُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ . فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ . إِنَّكَ بِالْوَادِي
الْمُقَدَّسِ طَوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ . فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا .
فَاعْبُدْنِي ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ . أَكَادُ أُخْفِيهَا ؛ لِتُجْزَى
كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى » .

واقدم كتب له في ألواح ، ومدوناته كل شيء عن هذه المعبودات ،
ولكنه حينئذ كلفه ربه بصوت في كلمات ، وأحرف في فهم . أو فهم بنو إسرائيل
معه أنه إنسان . أو شبيه بإنسان ، وتحت تأثير من قومه قال : « رَبِّ أَرِنِي
أَنْظُرْ إِلَيْكَ . قَالَ : لَنْ تَرَانِي ، وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ . فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ
فَسَوْفَ تَرَانِي . فَلَمَّا تَبَيَّنَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا . وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا » .
لقد كانت ذلك عقاباً لموسى وأخيه ، وكان فيه ما يكفي أن يرتدع به
بنو إسرائيل عن فكرة التشبيه ، ولكنهم ما لبثوا بعدها أن عادوا إلى نصوص
إبراهيم في شأن آشور ، وما لبثوا أن أرادوا بيها . أو يهوداً ذلك الإنسان ،
أو المعبود المنتظر الذي يبشر به إبراهيم .

حينئذ دبَّ خلف بين علماء بني إسرائيل . انقسمت به مملكتهم إلى
واحدة في الشمال « شام » وأخرى في الجنوب « فلسطين » .
واقدم كان نجاح سحر من شيطان في الشكل الذي اعتبره فتناً في الدين

مما عاد به القوم إلى فكرة تشبيه الله بإنسان ، ومما جعل العامة يتمسكون به على أنه إنسان ، وإنهم ما رفقوا في خلفهم عند هذا . بل قالوا ، أو قال البعض إن آشور ليس بمولود ؛ بل يجب أن يكون زوجا ، أو بعلا يدعى لزوجته ؛ فيسدل على أسرتها شيئا من نعيم الحياة ، وأن الحياة ليست زهداً . أو تقشفا تنادى به مملكة الجنوب .

ولقد استطاعت مملكة الجنوب أن تنال من مملكة الشمال ؛ لأنها تخالف إبراهيم ، وأن إبراهيم ما أراد بأشور أن يكون زوجا مزعوماً تنادى به هذه المملكة . قال تعالى : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا ؛ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . اللَّهُ رَبُّكُمْ . وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ » .

وحين أخذهما الضعف تفرقا مع الحثيين ، أو آثروا البقاء على دخلٍ ومواربةٍ في العقيدة ، والسياسة بين مصر وآشور . ولما اشتد النزاع حول العقائد وعاق بعض الساسة وازع ديني عن التوسع في ملكية تنازل كل لأخيه عن شيء من اعترافه الديني ؛ ليعيش في أمن ؛ أو يعيش على حساب آخرين . ولقد ساد الجميع تسامح ديني . ولكنه كان ريثما يُتم نبي رسالته بين بني إسرائيل ؛ ثم يعود الأمر إلى أشد مما كان عليه .

هذا وقد أعقب زواج ؛ أو رغبة في زواج ؛ يصلوا به إلى آشور ، أو إليه منتظر نسلا ؛ أو زيادة في الدرية غلبت عليها الأنوثة ؛ مما جعل أهل الشمال يتمسكون بالدعاء أولا لبعل . وما زالوا ينحدرون وراء الحثيين في طلب العيش يحملون هذه المبادئ الزوجية ؛ التي صبغوا بها الحياة الأوربية في كل عصر ؛ والتي جعلتهم جميعا بعد . . . يتحللون من كل نظام ديني في مصاهرة أو اختلاط جنسي .

أما في الجنوب فقد استطاع القوم أن يوجدوا نظاماً سموه رهبانية ؛ وأعدوا له نظماً ، وتعاليم أشبه بنظم المدارس ، وتعاليمها . ولكنه ما صح ؛ وإن يصح ؛ كنظام دائم في الدين ؛ إذ هو تعطيل ، أو توقيف لسير الحياة ، ويتبى حتماً بفناء النوع . أو الجنس . ولو أنه اتبع ؛ كنظام توقيتي ؛ ربما يتم إصلاح أو تجديد لأجدى على الإنسانية ؛ ولأمكنهم أن يطابقوا به بين حياة وحياة في أزمة زواج ، أو عند انتشار فساد .

قال تعالى : « وَقَفَيْنَا بِعَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ . وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ . وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ، وَرَحْمَةً ، وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا . مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ؛ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا . فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

ولقد كان إحياء الموتى في عزير ، وغير عزير ، على يد سحرة أو علماء مما جعل القوم يتمسكون بمبدأ المصريين في عودة الروح . وعند ما ظهر المسيح قالوا : إن واحداً منهما هو آشور . أو الإشع . أو يسوع . أو إلياسين .

قال تعالى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ : عَزِيرٌ بْنُ اللَّهِ . وَقَالَتِ النَّصَارَى : الْمَسِيحُ بْنُ اللَّهِ . ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ؛ يُضَاهِئُونَ — يطابقون — بِهِ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ . قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ، وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَالْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ؛ وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

ولقد قالوا : إن واحداً منهما هو الذي سيغير أوضاع كل دين ؛ ليتبع بسعة

صدر من الجميع . ولعل ذلك كان بشارة أيضا بمحمد ^(١) ولكنهم قد أنكروها ،
وأنكروا معها جزءاً من التوراة ، ووقفوا بها عند عزيز والمسيح .

قال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ؛ إِذْ قَالُوا : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ
بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ . قُلْ : مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا
وَهُدًى لِلنَّاسِ . يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ . يُبَدُّونَهَا ؛ وَيُخْفُونَ كَثِيرًا . »
وعندما فقدوا المسيح تأسوا له عودة على نظام أمون ؛ مما جعل للمسيحية
من بين كهنته خيرعون ، وحسن ضيافة لانصار المسيح . وما زالوا يطوون
إليهم القفار ؛ حتى سُموا « إيجبت » « Egypt » ^(٢) . أو « قبط » . الأول
من جاب يجوب . والثاني من « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » . تهويناً للمسافة .

هذا ما أعقبته فكرة آشور « آخور » بين العامة . عند المصريين ،
وبني إسرائيل . أما الخاصة فقد كانوا ينتظرون تأويله بين نبي و نبي ؛
استنادا على ما تحمله كل رسالة من تبشير بدين ، أو رأي جديد . ولكنهم
كانوا كلما أنتجت لهم عقلية « ثروة » في تفكير . أو تكوين ألفاظ . أو انتقال
بها من معنى إلى معنى جديد تناولوه بتخطيء . أو تحريف إبقاء على قديم .
قال تعالى : « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ؛ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً .
يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ
عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ؛ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ؛ فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاصْفَحْ . إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

(١) أقصد بذلك فكرة عموم الرسالة فقط .

(٢) لفظ « قبط » كلفظ « جوزويت » مما بقيت فيه التاء في الأصل اللاتيني ؛ في حين
أنها انفصلت في اللغة العربية ؛ لتكون تاء فاعل أو تاء تأنيث . وربما تكون التسمية قد
تنوعت بألقاب من « آب » .

هذا ... وإذا رجعنا إلى آشور مع الآشوريين وحدهم ؛ أو مع الآريين نجدهم قد أرادوا به فكرة خيالية عامة قال بها زرادشت ؛ وقسم لها الحياة بين خير وشر ؛ ووقف بجانب خير ؛ ليطارد به دشت الحياة في نسل لا يستحق الذكر ، أو تعلق بأنوثته لا يأتي بخير ؛ وليتعمد بالوهية آشور عن التمسك به في ولادة ، ووضع كلا الناحيتين في تسمية من لفظ آشور بعد الاستغناء عن الشين بهاء . فسمى خيرا بـ « أهورمازدا » . أى « إله معنوى . أو في غيبة يزيد ، وفي نمو مع نمو العقل » . وسمى شرا بـ « أهرمان » . أى « سوء وقبح افكرة آشور ؛ إذا كان يأتي عن تعلق امرأة برجل » .

هذا . . . وما زالت فكرة خير تنمو ؛ حتى تركت عليها الحياة العلمية في كل قطر ؛ وحتى نمت في ظلها كثير من الملوك ، والقادة . أمثال شلمنزار وسنخاريب .

أما في بطن الجزيرة فقد وقف العرب ، واليمنيون بعد صالح عند القدر الأول من التوحيد للموس من « إيل » ؛ كما وقفوا به عند سبب واحد أو سببين من السماء ؛ وإنه ما زال يحتاج إلى رقى في العقل ؛ ليأخذ أفقاً أوسع في تفكير ؛ أو نصيباً أكبر في لفظ ؛ أو تعبير . وإنهم ما زالوا يختلطون بالحياة على ضفاف الأنهار ؛ ويعودون ومعهم منها نصيب ؛ حتى كان المانوية مناة ولتعجيز ، أو ضياع أمل في مصاهرة ، أو إقامة ملكية ؛ أو نجاح فيهما . « اللات » و « العزى » ؛ وحتى كان لبقية ثمود من بينها « صمودا » . وإن ذلك كله كان يؤذن بدين جديد . يستخلص فكرة صحيحة . أو عامة لمعنى إله .

قال تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ ، وَالْعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ . وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُسُوهَا أَنْتُمْ ، وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى . أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى . فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى . »

وعندما ظهر الإسلام ما كان للبعض أن يقف عند آشور . أو يهوذا . أو أمون . أو يريد بهم . آهور ، وعزيرا ، والمسيح بعد أن صُوِّدَتْ فِكْرَةٌ مُحَمَّدٍ فِي شَأْنِهِ سَبْحَانَهُ بِتَعْجِيزٍ ، وَتَهْلِيدٍ مِنَ السَّمَاءِ . إِنْ لَمْ يَتَّخِذُوا عَنْهُ ؛ كإِنْسَانٍ . قال تعالى : « وَيَسْتَنْبِذُوكَ أَحَقُّ هُوَ . قُلْ : إِي . وَرَبِّي . إِنَّهُ لَحَقُّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ . » . « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ . وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . » . « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنْ اللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ . وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . »

وحينما عاد آخرون إلى نصوص إبراهيم استطاع قرآن . أو كتاب سماوى أن يبرىء إبراهيم .

قال تعالى : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ -- أَى فِي شَأْنِهِ سَبْحَانَهُ -- مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ : تَعَالَوْا . نَدْعُ أَبْنَاءَنَا ، وَأَبْدَاءَكُمْ ، وَنِسَاءَنَا ، وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنْفُسَنَا ، وَأَنْفُسَكُمْ . ثُمَّ نَبْتَهِلْ ؛ فَجَعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنْ هَذَا إِلَهُ الْفَصْصِ الْحَقِّ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . »

فَإِنْ تَوَلَّوْا . فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ نَسَأَلُوكُمْ
إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ . أَلَّا نَسُبَّكَ يَا اللَّهُ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ
شَيْئًا . وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْجُجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ،
وَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَذَا أَنْتُمْ هَوْلَاءُ
حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ — أَى فِيمَا وَقَعَ تَحْتِ مَشَاهِدَتِكُمْ — فَلِمَ تَحْجُجُونَ
فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ — أَى فِيمَا مَضَى مِنْ قِصَصٍ — وَاللَّهُ يَعْلَمُ ، وَأَنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا
مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ .
وَهَذَا النَّبِيُّ ؛ وَالَّذِينَ آمَنُوا . وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . » .

هذا ... وإن تدرجا في رقى عقلى ؛ أو نهوض فكرى يستطيع أن يبرىء
إبراهيم ، أو يحتمل عن أنصاره ، وخلفائه مسئولية ؛ إذا عجزت اللغة أن تكون
أداة تفاهم بين الجميع .

هذا هو شأن الثلاثة الآلهة الذين سيطروا على العقلية قبيل الإسلام .
أما أمون فقد ضاع في قرابة بين كهنته وأنصار المسيح . وأما آهور فقد سيطر
على المسيحية . أولها في ربوع أوربا في فكرة خير وشر . أو ما بين عقل ودين .
وعندما أخذت تعاليم الإسلام في الانتشار أخذ الأوربيون يعدلون
مواقفهم في الدين ، ويتدرجون في تنازلهم عن ألوهية . أو بنوة لألوهية للمسيح .
ما يهودية . أو إسرائيلية فما كان لها بعد هذا أن تقف عندهم هوذا . أو عزيز .
ولقد لحق كل نبي بالرفيق الأعلى ؛ وفي الجراب بقية وإن نصا في شريعة

إبراهيم لأشور له مثيل في الإسلام . وإن آشور ؛ كإنسان يجمع الناس على دين واحد هو ذلك الداعي الذي يبشر به القرآن . قال تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ؛ لَا عِوَجَ لَهُ . وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ، فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » .

إن علوما ، ونظم تربية عند بعث محمد ، وبعده لم تستطع أن تخلق آشور . وإن آشور ان يكون إلا بعد أن تستقصى الإنسانية كل معرفة ؛ وحتى لا يكون هناك علم يطويه غيب . وإنه ؛ كإنسان غير مسئول لن يكون إلا ؛ كنتيجة لنجاح تجاربها في التربية ، والسياسة على نظام المسؤولية بشكل عام .

قد يبدو عسيرا على الإنسان أن يخلق من نفسه رجلا غير مسئول . أو بمعنى آخر غير معاقب . أو ملام على شيء رآه أن يترك ! أو يؤجل إلى حين ! ولكنه يستطيعه ؛ إذا حدد لنفسه واجبا ، وفهمه ؛ وقام به على النحو الذي سيطلب منه ؛ بحيث يستطيع أن يفهم سائله ، ويقدره ، وبحيث يستطيع أن يقدم عذرا مقبولا فيما تركه ، ويرتبط بواجبه .

هذا فيما بين الإنسان وأخيه الإنسان . أو فيما بينه وبين رئيس لا يعاوه بكثير . أما فيما بينه وبين ربه . أو فيما بين أمير ووزير ، فقد تعثرت فيه السياسة بعد محمد ، وما زالت تتخبط فيه حتى اليوم ، وإنه ؛ كنهج أو إرشاد إلهي ما نجح فيه إلا أمة^(١) واحدة ، ولعل ذلك النجاح كان ؛ كنتيجة لتجارب الإنسانية عامة في شؤون السياسة .

(١) هذه الأمة هم الانجليز . وهذا النجاح ؛ وإن تحقق مع خطأ في مبدأ الفصل التام بين السلطات الثلاث فإنما يرجع إلى أنهم كانوا يعتمدون على الثقة بأنفسهم أكثر من اعتمادهم على مراسم ، وقوانين . هذا إلى أنها أمة أمانيتها محققة .

وأحمد عجز المساهون عن تحديد الواجب . أو تحديد الموقف بعد مقتل عثمان ؛
فخرج البعض يطالب بدم عثمان ، وماذا تجدي عليهم مطالبة بدم عثمان . وهم على
أبواب جهاد عام .

إننا لا نرى لوماً على علي بن أبي طالب حين آثر على ذلك جهادا في سبيل
الله ؛ كما لا نرى لوماً على السياسة من بعده ؛ إذا داهن فيها معاوية ما دام قد
أدى بها خدمة لصالح الإسلام .

إننا في الواقع لا نستطيع أن نخلق من أنفسنا رجالاً مسئولين . أو غير
مسئولين إلا إذا حدد كل منا واجبه ؛ كمبدأ يقف عنده ، ويكون به شخصيته ،
وإننا لا نستطيع ذلك . وسياسة الأمة تسير على نمط تتلاشى فيه المسؤولية .

إننا إما أن نشق بأنفسنا كساسة ، وإما أن نشق بأنفسنا كنواب عن
الأمة ، وجمع بين الثقتين لحزب واحد لا يؤيده برهان ؛ بل يسير على نقيض
ما ينادى به علماء التربية من وجوب الفصل بين قوى الأمة في ساحاتها الثلاث
هذا خطأنا في السياسة . خطأ لأنه لا يدوم به الحكم لكل وزارة إلا بضعة
أشهر ، وخطأ لأنه تضعف به هيبة . أو استقرار نرجوه لنيابة الأمة .

إن المستقبل سيتطلب من كل هيئة ، وكل جماعة تحديداً للموقف ، وتحديد
للواجب ، وثقة بالنفس ؛ لتعتمد عليها أكثر ما تعتمد على مراسيم وقوانين .
ألا وإن دفائن الماضي ستنتثر ، وسينال كل فريق من فريق ، وبالقدر الذي
اقتربت به الآثام ، وإن آشور . أو ذلك الداعي سيكون غير مسئول .

هذا . . . وإن آشور لن يبعث إلا من الأرض ، وبين الخلاصة الصالحة
والأخيرة من الخلق . أما إرشاده فسيكون عن إرسال من العقل يهتدى به من

على الأرض ، أو على ظهور الكواكب . قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ
السَّاعَةُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ — أَى يَقُومَ ، ويمتل ما فيهما من مخلوقات — ، ثُمَّ
إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » .

وبعد .. فلعلة يكون هناك داع آخر ينادى ببحث الإنسانية ، وما كانت
عليه من مفكر ؛ ليهي له طريقا إلى الفناء عن طريق التنديد والتبكيث ،
ووسط هذا يستطيع الإنسان أن يكون له شخصية^(١) أو لا يستطيع . قال تعالى :
« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ نَكْرًا : خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ . يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ^(٢) كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِيَ يَقُولُ
الْكَاْفِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٌ » .

(١) عند نجاح الاستطاعة يتحقق قوله تعالى : « يعزوا لله ما يشاء ويثبت » . وعنده
أم الكتاب .

(٢) خروج الناس من الأجداث عند البعث لا يراد به الخروج من قبور الدنيا ؛
بل من مواطن الإحياء على ظهور الكواكب .

نشأة الأوب ومبادئ الاجتماع^(١)

لقد فاتنا أن نذكر شيئاً عن الأثر العالمي الذي أحدثته قبائل « السكاش شو » أو تناولوه من حيث أنه بداية أفكار ومعاني دارت حولها الأشعار ، أو كيف خطا بالعقلية إلى وجهة أدبية ، أو كيف خطا بالحياة من لهو ومجون إلى جدِّ و بعد نظر .

لقد كان الإنسان الأول كثيراً ما تغلبه شهواته ، وكثيراً ما كان يقع بسببها في حيرة من أمره ، وكثيراً ما كان ينتهي به إسرافه إلى فقر وعيلة . أو كسل وإترة أو إشار زهدٍ وتكشف على عمل وسعى وراء العيش . وكان عسيراً عليه . أو على ناحية مسئولة عنه أن تقيله من عثرته . أو تهيباً له جواً علمياً تتعادل به رغائبه ؛ حتى تترن عقليته بين خير وشر . أو غنى وفقر . أو جدِّ ولهو ، أو كسل وحب لسعي . أو تكون على استعداد دائماً لأن تسائر الحياة في جانبها الأرقى ، وحالتها التي تتمشى مع كل عصر .

ولقد كان انهيار الأسر ، وتبلور القوميات ؛ كنتيجة لهذا العجز مما ورثت النفس كثيراً من المعاني الروحية التي نمت عليها العقلية ؛ حتى كونت لها مذهباً في شعر . أو أدب . أو سياسة . أو اجتماع .

وعند ما امتزجت الحياة بمذاهب هذه القبائل كانت على حافٍ في ذلك مع بنوّة إسماعيل ، وكانوا جميعاً يريدونها أخوةً ، ومقاسمة بين الجميع .

(١) لقد وضحت شيئاً عن هذه المبادئ ، وأريد بها هنا ناحتها العامة أو الروحية التي كانت مادة للغة ، ومادة للأدب .

ولقد كان العرب أكثر ما يتجهون إلى ضفاف النيل . وكان كثيرا ما ينتقصهم فرعون ؛ ويردهم في خيبة أمل ، أو منه على عودة . وكانوا كلما عادوا . عادوا ومعهم نصيب فكري ، أو أدبي ، أو روحى يعيشون عليه ؛ ربما يأتى وقت مناسب ، أو فرصة تسمح بعودة . وما زال هذا دينهم ؛ حتى غلب عليهم اسم عاد . أو لفظ « عاد » ؛ وحتى غلبت على ناهيتهم الأدبية مسحة غضب جعلتهم يجولون بالأدب كثيرا فى مناقضة عدو ، أو مناشدة حماسة ، أو تلبية لنجدة ، أو كرم وحسن ضيافة .

أما فى الشمال ، أو فى أحضان هذه القبائل ؛ فقد غابت عليه ناحية قصصية لحيوان ، أو أسطورية لما مضى من حياة الإنسان . وكان ذلك كثيرا ما يغيظ الآشوريين ؛ حتى دفعهم إلى اغتصاب الحياة ، أو الحضارة على ضفاف الفرات ؛ لينشروا فيها مبادئهم فى السياسة ، وأحوال الاجتماع ؛ وليغفوا بها على حياة تؤثر شقاء من أجل نصيب من السحر . ولعل ذلك كان إيذانا ؛ لإدالة شعر ، وأدب من سحر .

قال تعالى : « وَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا — أَى شق علينا ؛ ليعود إلينا ما فقدناه من سحر — وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ . وَمَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » .

ولعل جنة فرعون أثرت فى نفوسهم ؛ فأرادوها على غير النهج الصالح للأنبياء ، وقبل أن تقوم نظريات المبادئ ، والعلوم على أساس . ولعل الله أراد بهم شقاء من نوع آخر ؛ لتنمو فى ظله أقصوصة تبكى الأطلال والديار . وأخرى تنشأ مجدداً على تجارب اختزلت ؛ وبان ما كان فيها من غث للعيان . ولعل ذلك كان دعوة لهم ؛ لتحقيق ما وصلوا إليه من علوم .

قال تعالى : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السَّمَاءِ . فَظَلَّوْا فِيهِ يَعْرَجُونَ
لَقَالُوا . إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلَى نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

ولقد كان انقسام بني إسرائيل في هذه المبادئ أو حول المعاني الأولى لأدبٍ
وشعر مما كان يدفع إلى هجرات بدوية إلى فلسطين من ذريات موسى ؛ ومن
كان قد استودعهم في « مَدْيَنَ » موطن أمومتهم من شعيب .

ولقد كان هؤلاء البدو على جانب عظيم من الزهد ؛ وراثته عن جدودهم
أورعاية لمبادئ إبراهيم ، وكان كثيراً ما تميل بهم هذه المبادئ إلى رحمة ...
أو تسامح ... أو رعاية لجار ... وغيرها من المعاني التي كانت تواتى اللفظة
بمادة للخطابة والتأثير . ولعلمهم جميعاً حينذاك ، أو قبيل رسالة داود وسليمان
وفي القرن العاشر قبل الميلاد قد عرفوا اللغة ، ولانت على ألسنتهم معانيها ،
وفهموا ما لها من أثر في إقامة حجة ، أو توضيح برهان .

إن ذلك في الواقع كان بداية صالحة تبشر بنهوض الأدب ؛ ليخلف
سحراً ، أو عرافة ... الخ . في التأثير على العامة لصالح في دين ، أو في سياسة .
و حين شغل السحر جانباً من رسالة سليمان كانت النفوس قد ملته ، وأراد
سليمان أن ينتهي فيه إلى رأى . قال تعالى : « وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى
مَلِكِ سُلَيْمَانَ . وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ . وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا . يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
السَّحَرَ » .

و حين لحق سليمان بالرفيق الأعلى كان قد خآف الإنسانية في نزاع حول
مبدأين على تضاد . ترف ، وزهد . أو نعيم ، وتصوف . وحيناً أحدث تصوف
أو بذخ رد فعل في النفوس أو أثر عمل اليد ، أو السكد وراء العيش ؛ وكان
منه الشعب اللبدي ؛ الذي خلف الحسين على آسيا الصغرى . أما في أقصى الجنوب

أر في فلسطين فما زال علماء بني إسرائيل يحتضنون العلم على تصوف ؛ وما زالوا
يؤثرونه لبنيهم ؛ حتى رأيتاه ماثلا في الأدب الصوفي^(١) الذي ورثه الإسلام عن
هذه المدنيات . وحين نمتي عددهم . صاروا ؛ كأمة ، وعرفوا بالسريان ، واستطاعوا
أن يحماوا لواء المعرفة مع المسلمين في ترجمة أو تأليف .

أما في الشمال الشرقي من دجلة إلى بحارى ، وسمرقند . فقد أخذ الأدب ناحية
اجتماعية أخرى ؛ تسودها الفكاهة الموروثة عن السوماريين ؛ كما تسودها فكرة
أشبه بالشيوعية ، وقد نشأت مع الميديين أصحاب الموائد العامة على قارعة
الطريق . وبمصاهرات مع الأكاديين استطاعوا أن يبعدها عن هزل ومجون ؛
كما استطاعوا أن يصبغوها بناحية جدية كانت دعامة لِنَعْنِي الموسيقى والغناء .
ولقد نشأت هذه الشعوب على هيئة قبائل . وكانت في حالتها الاجتماعية
على ما نعرفه عن العرب في العصر الجاهلي ، وكان كلما وصل إليهم فوج من العرب
وجد منهم روحا طيبة ، وامتزاجا في المعيشة ؛ لما بينهما من تشابه فيها .
أو لما كان بينهما قديما من أواصر في النسب ؛ إذ يعودون إلى نوح وإسماعيل .
ولقد نمت هذه القبائل على الفروسية ؛ واتخذتها وسيلة لسلب أو نهب ؛
على سبيل الجمالة للجهليين . ولقد كانوا كثيرا ما ينددون بسياسة آشور ؛
وكثيرا ما حالوا بينها وبين التقدم إلى سوريا . أو بني إسرائيل . وكانوا كإخوانهم
العرب على شيء عظيم من الاستقلال في الرأي ؛ مما أدى إلى وجود قومية
أو مبدأ قومية في نفس كل قبيلة ؛ كما كانوا يكرهون الملكيات الكبيرة
في الثروة . أو السياسة ؛ فإذا رأتها قبيلة أن تغتصب ، وتوزع على الفقراء . كبرت ،

(١) الأدب الصوفي إلمامة يمكن استخلاصها من الموضوعات السابقة .

أما الميديون فقد هاجروا . أو هاجر البعض بمبادئه إلى أوربا عن طريق بحر قزوين^(١) وما زالوا يعيشون مع غيرهم على هذه المبادئ . ولوفى فوضى اجتماعية ؛ حتى امتازت أخيرا إلى شيوعية واشتراكية .

وحين تخلف البعض كان قد تخلف ؛ ليرى رأيا ، أو ينتظر نتيجة ؛ إذا تنازل عن بعض من مبادئه ؛ ليستعويض عنه بشيء من عرف الليديين . فنشأت قومية عرفت بالإيدومية . وحينما أوتر آدم مع كد من قيراط أرض على سلب ونهب تحولات التسمية إلى ديموقراطية ، وما زال هذا رمزاً للفلاح إلى اليوم . أو رمزاً للعامة من كل شعب .

هذا . . . ولعل من الميديين أقواما لم يستطيعوا أن يؤمنوا بعيسى ؛ حتى ينزل عليهم مائدة من السماء .

هذا إلى قوميات أخرى يضيق بها الذكر . وحينما كان يشتد نزاع حول مبادئ قومية وأخرى كان الموايون يستطيعون بقوميتهم أن يوفقوا بين الجميع باسم توبة . أو رجعة إلى الحق . أو قدرة على تحلل من فكرة إلى فكرة وانتقال من رأي إلى رأي .

وحينما كان يأخذ النزاع شكلا علميا كانت ترافقه قومية . أو ناحية علمية أو سياسية تأخذ معنى جمهورية أي « جمع أهور » . وتتركز في فكرة خير وشر ولقد كانت هذه المبادئ سرعان ما تنتقل إلى الشعب الهيليني ، وسرعان ما كان يعرضها على بساط العقل ، وكثيرا ما كان يحاول تطبيقها على نفسه أو على شعوب مجاورة ؛ حتى نشأت عنها قوميات انتهت بالإغريق ثم الرومان .

(١) التسمية كان منها قر . أي حرير . ووين . أي « أين » .

ولقد كان تسامح ديني عُرِفَ به الفرس مما ساعدهم على التوسع في ملكياتهم على حساب قوميات مجاورة لهم ، وكان ذلك كثيرا ما يوغر صدر الإغريق ؛ حتى نشأت بينهما عداوة وحروب انتهت بفوز الإغريق .

وحينما وافى القرن الرابع قبل الميلاد . أو حين أخذت الإنسانية تُجدِّد فيه كانت هذه المبادئ . أو تلك القوميات قد امتازت إلى عقليات ثلاث . دينية في مصر . وأدبية في فارس . وعلمية . أو نظرية في اليونان . وحينما رجعت كفة الإغريق استطاعوا أن يمزجوا بين هذه العقليات ، مع تفوق في الأصل الموروث .

ولقد كان تردُّد علماء الموابيين بين وطنيين أثناء نزاع بين فرس وإغريق أو فرس ورومان تردُّداً لنواحي المعرفة بين هؤلاء . وهؤلاء ، حتى أمكن للإغريق والرومان أن يأخذوا بنصيب وافر من أدب الفرس ، وحتى أمكن للمصريين أن يمزجوا تقاليدهم الدينية بفلسفة الإغريق

أما ناحية دينية للشرق في إسرائيلية أو مسيحية فلم يعترف بها علماء الإغريق أو الرومان ؛ إذ كانت تسيطر عليها الأهواء ، وكثيرا ما كانوا يستعوضون عنها بهيام في أدب ، أو شعر ، أو تمثيل .

ولعل عقلية إغريقية لم تعترف بهذه الأديان . كانت ، وما زالت إرثا عن مصاهرات من الجبلين مع الحثيين ؛ حتى امتازت بها فرق الألمان ، وحتى أرادوا بها الحقيقة الواقعة عند ظهور الإسلام .

هذا وحينما كان يشتد نزاع بين فرس ورومان كانت تضيع قوميات ، وتفتى جماعات . وكلما فنيت قومية أو جماعة قُبعت معرفتها في قرية ، أو مدينة

أو مقاطعة ؛ لتكون إرثاً للجيل الجديد . وما زالت هذه المعارف تنمو في شكل قروى ، أو مدنى ، أو إقطاعى ؛ حتى رأيناها أخيراً فى أمثال « بعلبك » و « أنطاكية » و « حوران » و « نصيبين » . وحتى رأيناها مع الإسلام فى « بخارى » و « سمرقند » و « كرمان » أى « أهرمان » و « خراسان » أى « آشور . أو آخور ساسان » .

واقـد ضلت العقلية فى الشرق عند ظهور المسيح . وبعده ، وحارت ! من أى نصيب تأخذ ؟ أو إلى أى جانب تميل ؟ .

إن سحراً ... فقد ضلت به العقلية ، وأخلف به الظن ، وإن تصوفاً ... فقد شقيت به العقول ، وهزلت به الأجسام ، وإن ترفاً ... فقد عجزت عن تحقيقه ميدية . أو ليدية ، وأرادته مانوية على غير نظام ، وإن معرفة ... فقد أريد لها لغة موأتية ، تبلغ من نفوس القوم ما كان يبلغه سحر ، أو عرافة ، أو تنجيم . وإن علوماً ... فقد انتقلت إلى ناحية لغوية ؛ لتأخذ معانيها تجزيئاً فى حرف ، أو فعل أو اسم ظاهر ، أو ضمير ، أو تنويحاً ، بين قلة وكثرة ، أو بين أفراد وتثنية وجمع ... الخ .

حينئذٍ وجدت فى اللغة مادة لعلمى المعانى والبيان ، وحينئذٍ كثرت فى اللغة أحرف وأسماء يستطيع بها الخروج بالتعبير إلى أكثر من معنى واحد ، وحينئذٍ وجد فى اللغة ألفاظ بديعة تبرز بالمعنى ، وتصل به إلى التأثير فى العقول أمثال : « لعل » و « بلى » و « ليت » . الخ . وحينئذٍ أمكن للغة أن تدخلها تعبيرات ، كتشبيهات واستعارات . إذا قرأناها فى المأثور من علم الفلك اعتبرناها خرافات ، ولكنها كانت بداية تشبيهات واستعارات ، وحينئذٍ استطاعت اللغة أن تستوعب كل ما حصلت عليه الإنسانية من معارف وعلوم .

ولقد كانت هذه الفترة في الواقع فترة انتقال للعقلية من شعوظة إلى تعلق بيقين ؛ كما كانت فترة اختزال للمعرفة ؛ ليجول بها الأدب في شعر وخطابة . هذا . . . وإن القوم ما زالوا يجهلون التأثير الخطابي ؛ حتى يكون للعرب نصيب من السياسة على ضفاف دجلة ، وفي ربوع الشام ، وإنهم ما زالوا يهدون للغة جديدة ، هي لغة العرب ، و لغة القرآن . وحينما جاء الإسلام لم يكن عسيرا عليه أن يختلط بهذه العقول . كما لم يكن عسيرا عليه أن يمتزج بهذه القوميات .

إن الإسلام ما كان دين أمة ، بل كان شريعة أمم ، وما جاء إلا بعد أن مهّد له سبيل إلى كل عقلية ، ووُجد له إشعاع في كل نفس . وإن حيرة وقع فيها القوم كانت تؤذن بهذا الدين الخفيف .

وانقد ضلت العقلية عند ظهور الإسلام في هذا الإرث من العلوم . هذا . . . وقوميات قد أصيبت معرفتها بركون قد عادت إلى شبه نهوض ؛ لتأخذ حظها معه ، ولكن بشكل آخر غير ما كانت عليه .

إننا نجد مع الإسلام أقواماً يرددون فكرة آشور على أنه المهدي المنتظر ، ويؤثرون به إماماً من ذرية محمد . وإن هؤلاء كان يحدوهم عبد الله بن سبأ . وإننا نجد مع الإسلام فكرة خير وشر « زرادشتية » تشغل حيزاً كبيراً من عقلية علماء المسامين ، وينقسمون بها إلى فرق وأحزاب ، ولكنها لاتتدخل في أساس العقيدة ، بل تكفي بنصيب اختياري من أفعال العباد ، أو تتمسك بوجود فعل الأصلح على الله .

وإننا نجد للمواييين مع الإسلام فكرة رضاء بالقدر ، أو إرجاء له إلى

وإننا نجد مع الإسلام مرانا لحيوان يستطيع مسيامة ، وغير مسيامة من « زُطِّ » و « قرامطة » أن يأخذوا به من عرض الدنيا ما شاءوا ، وأن يؤثروا به على عقليات لم تهتد بعد . . . إلى نوع من الحياة .

ولقد استطاع الإسلام بين هذا الخلف العقلي أن يبنى له معرفة ، ويكون له علوما . كما استطاع بين هذا الشتات الاجتماعي أن يعيد مجد صالح وهود ، ولسكن لبناء في الجسم ، وتدعيم في الحضارة ، وتكوين في العقيدة .

قال تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ . وَكُلُوا ، وَاشْرَبُوا ؛ وَلَا تُسْرِفُوا . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » . وفي أخرى يقول سبحانه : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا . فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِنَا ، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » .

ومع هذا فقد نمت بعض العقليات عند المسلمين على إرث من الماضي ؛ في تصوف لا ينادى به القرآن ، وحين اشتد بهم الضيق السياسي في عهد الأتراك عاد السحر معهم ، وتحول إلى طب أحجية ، وتعاويز من القرآن .

هذا . . . وحينما كان يؤثر زواج بالأم . أو الأخت كان ؛ لتركيز صفات الوراثية في الذرية عن الأصول^(١) . وحين حدد بواحدة ، أو أربع . كان لتسبق ذرية كل نبي عددها ، أو تقف عند ما وصلت إليه ؛ ولتحصل في البقايا الصالحة تعادل في العدد ؛ لتفاوت الزمن مع كل بعث .

(١) هذا إلى أن انتشار العمق قديما بين النساء ، كان لضعف النظفة عن تحمل جزء من الأفكار الصالحة ؛ التي تساعد على انتشار النسل . أو تسلسل الذرية .

وإننا بعد الإسلام نرى مصاهرات قد تقف عند موت الذرية ؛ قبل أن تبلغ سن المراهقة ، أو تسير مع عقيم ، أو تنتهي بالفشل ، وذلك في الواقع يرجع إلى اختلاف الزوجين في الأصول . أما إذا كانت في سلالة نبي واحد ، وبين ذريته ؛ فإنها تتم على خير وفاق .

هذا ما رأيناه مع العباسيين . حين تمت المصاهرات بينهم وبين الفرس على خير وفاق ، وحين آتت تلك المصاهرات ثمرةً في نشر علم . أو نجاح سياسة ، وعلى العكس من ذلك ما رأيناه منهم مع الأتراك ، أو من الأمويين مع سكان الأندلس ؛ إذ كانت السياسة معهما على اختلاف ، أو في شقاق .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي . وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا

معنى الروح

لقد وضعنا كيف تدرجت الإنسانية في بناء معرفتها ، وتكوين علومها . وكيف استطاعت أن تبني حضارة يقرها العقل ، ويطمئن إليها التاريخ ؛ كما وضعنا في ذلك أثر كل رسالة ، وموضعها بين أحداثه .

ولقد كانت تغلب على هذه الرسائل الناحية الفنية . . . من عمران على الإنشاء والتعمير، و عمران على تنظيم المدن ، وتكوين الممالك ، وسياسة الشعوب . ولقد كان الزاد العالمي حتى بعث محمد في حاجة إلى تمحيص ، ولكن القدر الذي وصلت إليه الإنسانية منه وقت ذاك . كان بحيث يصح أن تتداوله الألسنة ، والأيدى بالقراءة والتدوين ، و بحيث يصح أن يأخذ له تسجيلاً على صفحة السماء ، و بحيث يجب على البدو أن يصلوا فيه إلى شيء ؛ ليكون حياة و لغة لعصر جديد .

إن ذلك في الواقع كان موضع رسالة محمد إذ قال له ربه : « إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . إقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

ولقد كان محمد « صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » كثيراً ما يسأل عن الروح ؛ ولكن حياة علمية إذ ذلك ما كانت على استعداد لتكوين الروح إلا أن تمحص ، وتحقق ، وتأخذ طريقها إلى الكمال في قراءة وتدوين .

ولقد خشى المصريون ، وعلماء المصريين على مذهبهم الديني في عودة

الروح . فكثير سؤالهم عنها ؛ ليطمئنوا إلى ما وصلوا إليه من عبادات ، ولكنه سبحانه كان يرجي ، الإجابة إلى يوم القيامة ؛ إذ سيتم تكوينها من علوم يتجلى بها ؛ كآية من آياته ، وكان يرفق بالإجابة قلة العلوم لذلك الحين . قال تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي : وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

إن الله أمراً آخر بعد أمر محمد ، وإن له آيات سيتجلى بها يوم القيامة ؛ لتنال كل نفس معها نصيبها من المعرفة والعلوم ، ولكن مع كثوروس من العذاب ؛ سيتجرعها كل جاهل ومفرط ؛ وكل عالم ؛ وبالتقدير الذي خفي عليه من هذه العلوم .

قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ . أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ . أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ . يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا ^(١) لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ . أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا . قُلْ : انْتظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » .

إن عذاباً تهدد به هذه الآية لم يكن سوى مد صور الإنسان في صفحة السماء بجزء قليل . أو كثير من الغازات المعدنية التي تنفرد منها النفس ، وتشمز منها الروح ؛ لتعود بعد الحنة إلى جلاء . وإن زاداً عامياً صحيحاً سيناله الإنسان إنما هو تكوين فكري للروح يجب أن يقابله تكوين معدني لصورته على الأرض ، وصورته في صفحة السماء . وإن انتظاراً تنفيذية تواتى المرء بهذا

(١) الإيمان : هو العلم بكل منجاء به القرآن من علوم . وآداب . وسياسة . الخ .

والعمل بها .

الجزء المعدنى لا يجدى فى مثل هذه الأوقات ؛ إذ سيستعد لصوم يتخلص به من خلايا المريضة ؛ والتي بنيت على خطأ ؛ ليبنيتها من جديد على صحيح من المعرفة والعلوم . . .

هذا . . . وتناول هذه العلوم بغير كتابة وقراءة لا يعتمد به فى تكوين لروح . وقراءة وكتابة بغير اللغة العربية فى هذا التكوين لا يؤبه له ، ولا ينظر إليه يوم القيامة ، بل لا بد وأن يعود كل إنسان إلى فطرته (١) ؛ لتسجل عليها هذه العلوم . قال تعالى : « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ - كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ . وَعَدَّا عَلَيْنا . إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » .

هذا . . . واقتراب من زوجة سيمنع منه المرء يوم القيامة ؛ حتى يتخلص من أخطائه ، وإن الأمر فى ذلك سيقصر على مس خارجى ؛ إذ أن هذا الإفراز العرصى أخطاء يجب ألا تلقى فى الأرحام ، وفضلات يجب أن تلقى إلى الخارج بأى شكل . وقد كنى الله عن ذلك بقوله تعالى : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ، وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » .

هذا فى الواقع كناية عن السفور ، وتعميمه يوم القيامة . وكناية عن تعديل أساليب التربية ، وبنائها على الشعور بالجمال فى كل شىء ، والوصول به مع المرأة إلى أبعاد غاياته عن طريق المدنية والتحضر . وكناية عن أخذ المرء بالشدة حينما يدعى مرة أخرى لصلاة أو سجود ينال به نصيبه من هذا الجمال فلا يستطيعه . ومع هذا فكبت للشهوة لا يعرفه يوم القيامة (٢) ؛ إذ يؤدى إلى احتقان

(١) عود الإنسان إلى الفطرة يكون برفع صورته ، وأوضاعه التى يعيش فيها من سماته .
وحيث لا يشعر إلا بما يقع عليه نظره .
(٢) القيامة لغة من تقويم الحلقة ، وتعديل الصور .

صور المرء ، وعجرفة الوجه ؛ لتوقف ملاقته الجنسية . أو الكهر بية عن التصريف ؛ فتزيد في احتراق صورته ، وهذا ما نلاحظه أيضاً على بعض فتياتنا اللاتي يزاولن المعرفة والعالم . طالبات . أو معلمات .

هذا إلى أن هذا الإفراز المرزى^(١) يخلفه غيره على حالة أنقى ؛ فيساعد على تجديد البشرة ، وتقوم الخلق ، وينتهي بصور الإنسان إلى نور ينعكس على الوجه ، ويطلق حقيقة منه . هذا مع النظافة ، وتربية النفس على الفضائل كما يأمر به الدين ؛ ليستطيع أن يستبدل بأخطائه حمة في الجسم ، وصواباً في الرأي ، واعتدالاً في الخلق ، واتزاناً في العقل . أما استهلاك هذا الإفراز على غير نظام فعيلة في شبيبة ، وطفولة في ثوب رجولة .

وهذه الصورة التي يكونها المرء لنفسه ، ويعمل على تسجيلها في صفحة السماء ؛ ليتناولها الملائ الأعلى بالتنقيح . هي روح الإنسان ، وهي على نوع من الحياة ؛ ولكن الإنسان لا يحيا معيا حياة صحيحة إلا مع الجسم ؛ لتكون حياة واقعية . لها قصد ، ولها أثر . أما هذا القدر الذي هي عليه من الحياة فهو القدر الذي نشعر به في الأحلام .

هذا . . . وكلما ارتقى الإنسان في أخلاقه وعاداته . وكلما أصاب الحقائق الفكرية ؛ كما يقترها العقل ، ويشرعها الدين ، كما وصات به روحه إلى حالة تقرب من الرؤيا الصالحة التي عرفت عن الأنبياء .

هذا ما سيكون عليه يوم القيامة ، ولهذا القصد قدر الله لهذا اليوم خمسين ألف سنة .

(١) هذا إلى أن هذا الإفراز يكون عند من يصل إلى درجة كبيرة من العقل والتفكير في حالة رقيقة ؛ لا يلبث أن يتطاير معها بعد دقائق .

قال تعالى : « سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ ^(١) لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ .
مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ . تَخْرُجُ الْمَلَائِكَةُ ، وَالرُّوحُ ^(٢) إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
مُقَدَّارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا . إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ،
وَيَرَاهُ قَرِيبًا : يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالرَّهْلِ ^(٣) . وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ .
وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيًّا . يَبْصُرُونَهُمْ ^(٤) .. الخ »

هذا ما استنبني به الروح ، وسيعتمد الإنسان فيه على نفسه إلى أقصى حد
وسيكون له وجه قبول من السماء عند ما تتخلى عنه الملائكة ؛ لتداوى
الإنسانية نفسها بنفسها . قال تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ
الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

أما ما يهدم من الروح فسيكون من نصيب الحيوانات ، وسيحيا هذا
الحيوان حياة صحيحة ؛ كتلك التي يحياها الإنسان ، وسيشاركه في كثير من
أوضاعه ؛ ليستطيع أن يتقبل عنه أخطائه . قال تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ
فِي الْأَرْضِ . وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ . مَا فَرَّطْنَا
فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » .

هذا . . . وكلام من الحيوان أمر لا بد منه ؛ ليستطيع أن يخلص مادون

(١) الكافرون : الغطى على أرواحهم ؛ لاختلاطها بأخطاء الحياة .

(٢) لا يراد بهذه الروح روح القدس ، بل روح كل إنسان عندما تتخلى عنها الملائكة ؛
فيصعدوا هم أيضا بأرواحهم إلى الله بعد هذا الجهاد .

(٣) المهل : ذوب منصهر من النحاس . وهو كناية عما ستكون عليه الأرواح من
شدة في الحرارة .

(٤) يبصرونهم : أى يوجه كل إنسان إلى خصمه ؛ ليخلص منه بأى شكل .

في الروح من أخطاء . وهذا أمر سيتحقق مع يوم القيامة ؛ كآية من آياته سبحانه . قال تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ ، تَكَلِّمُهُمْ ^(١) أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » .

وسيتنوع الحيوان حسب تفاوت الأرواح . وربما كان الطير من نصيب العلماء ؛ ليستطيع أن يقتنص من أفكارهم ما يشاء ؛ ليزود بها الجاهل ، والمتدرجين في المعرفة . وربما كان لكل إنسان بعد هذا الجهاد طائر ؛ ليرى مقدار ما يستطيع أن يرسله له من أفكار . قال تعالى « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ^(٢) وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا ؛ بَلَقَاهُ مَنشُورًا . إِقْرَأْ كِتَابَكَ : كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » .

وصور الإنسان تلك هي التي يقوم عليها الإحياء ، وتتحقق بها الإماتة ؛ فإذا أريد له نقلة إلى الآخرة نقلت الملائكة هذه الصور بجميع أوضاعها ؛ التي كان عليها في الدنيا إلى الكواكب . عندئذ تغيب أوضاع الدنيا من فكره ، ويكون الموت . فإذا تجمع من هذه الصور عدد يستحق الإحياء أمطرت الكواكب بقطر خائر ^(٣) ؛ ثم سلطت عليه هذه الصور . وحينئذ تستطيع

(١) لا يراد لهذا الكلام أن يكون تام النطق ؛ بل سيكون على أي نحو ، وعلى نحو ما كان عليه الإنسان من عجرفة في صوته ؛ ليحصل به تطابق بين الصور . وربما اضطرت قوى السماء ؛ فتلقى عليه صورا لحيوانه الذي سيشبه به إن لم يسرع في التخلص من أخطائه .

(٢) هذا كناية عن ملازمته لسمت الإنسان فقط ؛ ليحبط علماً بأفكاره ، وما يستطعمه من إرسال ؛ كنتيجة لحشيته ، وتوجهه إلى الله .

(٣) أي كشف كالأبن الرائب .

كل صورة . أو كل روح بما هي عليه من حرارة أن تجفف لها جسما ينقسمه
الإنسان من هذه المياه .

وستعرض الإنسانية لنوع من العقاب على نمط العقاب الطبيعي ؛ ليتخلص
الإنسان مما كان يركن إليه من عادات ، وتقاليد لا تتفق مع ليونة تروحي
للروح . وسيشارك كل نبي ذريته في جزء من هذا العذاب لتشجيع . فمن
يحيا على أمل فليوطن نفسه على فقده ؛ حتى لا يموت حسرة عليه . ومن اعتاد
سكنى القصور فليعود نفسه سكنى الأكواخ ، وفي جوف الصحارى ؛ لتزكو
روحه على شيء من الصبر ، والجلد ، وقوة الاحتمال ؛ كما زكت بذلك أرواح
الأنبياء .

هذا ... وستعدد الإمامة يوم القيامة ؛ لاختبار ما وصلت إليه الروح من
تكوين علمي وخالقي . أما مدى هذا الاختبار فيكون ببقاء أجسام الموتى مدة
كبيرة من الزمن . دون أن تصاب بتحلل ، أو تعفن ؛ إذ تكون قد وصلت
الروح إلى درجة من الحرارة ، بحيث تستطيع أن تبدد ما يحيط بالجسم من
رطوبة ؛ وتلك قد نشاهدها في أجسام الأولياء بعد الموت ؛ ومن على علم
وحكمة من عطاء التاريخ .

وهذه الحرارة المعدنية للروح . هي التي ستكون عليها سرعة التثام
الجروح ، وسرعة الإبلال من المرض ؛ لتجفيفها ما يحيط بالأعصاب من
فضلات دهنية ، أو مخاطية ؛ تقف بالجسم عن نموه الطبيعي .

وقدرة الإنسان على إرسال ربما نستطيعه . أو نستطيعه المستقبل ؛ على أنه
لن يستطاع إلا إذا تخلصت الإنسانية من شوائب الحياة ؛ لتصل الروح إلى

حالة تزكو معها هذه الصور . وليس ببعيد عما يها أن تصل إليه ، وقد عاشت عليه روحا من الزمن في سحر ، وعرافة ، وتنجيم ... الخ . ولكنه ان يكون بين إنس وجان ؛ بل بين الإنسان وأخيه الإنسان ؛ كنتيجة لوصوله بحضورته إلى الاعتراف بها من جان ، أو شيطان .

هذه الصور ، هي التي يراها الإنسان لصديقه في الأحلام ، وأثناء النوم . وليس عسيرا عليه أن يكونها لنفسه في خياله ؛ ليراهها أثناء اليقظة ؛ كما يراها في أحلامه ، وهذا هو المثل الأعلى لتربية قوى الخيال عند الإنسان .

هذا إنما يكون بإجادة الخيال ، والتفكير في حياة يحياها هذا الصديق في بقعة ما ... من الأرض ؛ يكون هو أيضا قد شاهدها ، وعانيتها ؛ ليوضح لها صوراً في مخيلته ؛ على أن ذلك لن يكون إلا بعد أن يدرس حياة صديقه العقلية ؛ ليستطيع أن يرسل إليه هذه الصور على ضوء منها ، هذا مع العزلة التامة ، والابتعاد عن صخب الحياة ، وتحت ظلام من الليل ، أو من سقف المنازل ؛ حتى لا تتلاشى هذه الصور في ضوء النهار .

هذا بما أتينا به لأشور ؛ ليستطيع أن يأخذ الإنسانية ، بتوجيه عام ؛ وإذا نجح فيه فهو نجاح للإنسانية في هذا النوع من الحياة .

واقدر رأيت على عفوٍ مثل هذه الصور . أثناء اليقظة ؛ وأنا مغمض العينين وكان جفناي لها ؛ كشاشة بيضاء . وكان يغلب أن كانت صوراً نعقد لم أرهن مثيلاً ؛ ولكنني لم أدر من أين كانت تأتيني هذه الصور .

واقدر ضللت الحياة بعدها حيناً ؛ ولكنني لم أدر ... أضللتها عن الجان أم كانت قد استهوتني الشياطين .

ولقد احتفظت بقواى العقلية كما هى ، ولكن مع طارىء نسيان .
ما كنت أشعر به من قبل .
و بعد . . . فأيها الأخ السابق ؛ إذا فارقت الحياة ؛ فثق أنك ستحيا .
بعد ساعات ودقائق ؛ وثق أننا ، أوذرية منا .ستتصل بمائك فى يوم من
الأيام . فإن كنت على علم ، وحكمة ؛ فجاوبنا بما .تستطيع من أصدقاء الحياة .
على ضفاف الكواكب ..

الحالات الفكرية وأثرها في جهاز العصبى

لقد كان مما اعتدته عند غسل الوجه أن أجعل للصابون مسا؛ والتهابا في باطن جفنى؛ وكنت كلما داومت على ذلك أرى لما يحيطنى من أجواء بريقا ولعانا. وكنت عندما أكرر هذا؛ كنظام تعودته؛ أرى على غير قصد شررا لا يتجاوز حبة القمح؛ يخرج من موق عيني .

ولقد حاولت كثيرا؛ لأرى كنه هذا النور؛ فكنت أستبدل بالصابون شيئا من عصارة الثوم؛ ليزداد التهاب الجفنين؛ ثم أغمض عيني بإصبعين؛ وأحلق بفكرى إلى السماء؛ فأجد نقطا منها على جفنى؛ وإكن فى شكل ناصع؛ وبين هالات من نور⁽¹⁾. حينئذ علمت أننا نعيش فى ضوء آخر دونه ضوء النهار؛ وأن بحاسة البصر عندنا ضعفا؛ وقف بها عن رؤية هذا الضوء وأن هذا الضوء الذرى الذى نعيش فيه. ما هو إلا مس بين هذا النور، وأشعة من الشمس، أو أشعة من البصر.

هذا النور الذى عجزت أبصارنا عن رؤيته، هو الإنتاج الكهربى الذى ادخرته الإنسانية لنفسها منذ أجيال من السنين. وهو فى الوقت نفسه الإنتاج الفكرى الذى وصلت إليه؛ والخلاصة الصالحة التى استحققت أن تشغل حيزا من السماء.

(1) هذه النقطة تشبه ما تكونه بحمة الضوء من أشعة الشمس على الورق. ولعل هذا من عمل عدسة العين؛ كحزمة ضوء الكون.

هذا الإنتاج الكهربى . ليس من تكوين الطبيعة كما نفهمه على خطأ ؛ بل من تكوين الإنسان ؛ كنتيجة لشقائه ، وجهاده فى الحياة . وهو فى حد ذاته وحدة لا تنجزاً ؛ بخلاف ضوء الشمس . وكما وصلت الإنسانية إلى إنتاج علمى ؛ أو روحى يمكن أن ترتبط به بأواصر من الرحمة ، والعدالة . كلما ساعد ذلك على تماسك هذا الإنتاج الكهربى . أما ما يخالف الحقائق الفكرية المرجوة للإنسانية ، فإنه يستنفد فى الحروب ، ويأخذ له طريقاً إلى الفناء ؛ كنتيجة للتخلص من شرور بدت من أمة أو جماعة ، أو كراحة يشعر الإنسان بها بعد أن يأخذ لنفسه بالتأثر ، وهى فى كل ذلك أفكار تتألم منها النفس ، ويوحز بها الضمير ، وتجهد الأعصاب إن لم تأخذ لها هذا الطريق إلى الفناء .

قد يتبادر إلى الذهن أن هذا الإنتاج الفكرى ، أو الكهربى يحرق الجسم ؛ كما تحرق قصاصات الورق بالنار . والواقع أنه لا يحرق النفس منه إلا ما تتألم منه . هذا إلى أننا أجسام معزولة بما يحيط بنا ، و بأرواحنا من غازات رطبة كغاز النوشادر . أو تيارات هوائية تساعد على انتعاش الجسم .

ولقد كان دخل الإنسان الأول من هذا الإنتاج الفكرى ، أو الكهربى على غير نظام ، وكان كثيراً ما يعجز عن تلمس أسباب من الرحمة والعدالة ؛ فتشور نفسه ، ويتملكه الغضب ؛ فيأتى بإنتاج فكرى لا تحتسله السماء ؛ فيرمى فى وجهه ؛ ليحترق به فى صيحة ، أو رجفة ، أو صاعقة . قال تعالى : « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ؛ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ . . . »

هذا . . . وكما أدى الإنسان تجاربه فى زراعة . أو صناعة . أو تجارة .

أو تعليم . . . الخ . بحيث تأخذ صفة نجاح . استطاع أن يمدَّ صورته بها ؛
ليقتطف منها ما يشاء وقت الحاجة ؛ عن طريق التتطابق بين الصور .
وحينئذٍ يستطيع أن يؤدي تجاربه في الحياة في يسر ، ومن غير تعب .

أما إذا تهاون في تأدية واجبه ؛ كتجارب تتطلبها الحياة ، ويتطلبها
المستقبل . فلا يزال يتعثر فيها ؛ حتى تأخذ صفة تعديل على صفحة السماء .

قال تعالى : « وَالْبَدِّ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ — أَي خيره — بِإِذْنِ رَبِّهِ .

وَالَّذِي خُبْتُ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا » .

والتتطابق بين الصور في نبات . أو إنسان . أو حيوان هو ما يقصده
سبحانه ؛ لنجاح هذه التجارب ؛ حتى يستطيع سبحانه أن يتخلى عنها ؛ لترتفع
كل نفس بما كسبت . أو اكتسبت ؛ إذا أظهر يوم القيامة عجزا في بعض
الأنفس بعد هذا الجهاد .

وهذا التتطابق بعد أن تنتهي الإنسانية ؛ وإلى حد ما . . . في تجاربها إلى
نجاح . هو الذي سيسير الحياة في جميع أوضاعها ، وهو الذي سيستغنى به سبحانه
عن توجيه قدرة جديدة إلى خالقه . فيعني كل معن . أو ممثل كيفما استطاع له
الغناء . أو التمثيل ؛ وبالشكل الذي يتقبله الذوق السليم . ويؤدي كل مدرس
واجبه في يسر ؛ وكيفما أرادت نظم التربية ، والتعليم . ويخرج كل صانع
صناعته بالشكل الذي لا تنتهي به إلى بوار . . هذا إلى ما يرجح من نجاح
لكل حرفة . أو مهنة .

قال تعالى : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ — أَي الشكل ، والهيكَل —

يَفْتَاتُونَ أَفْوَاجًا » .

أما هذا التطابق فلا أقلّ ولا أكثر؛ لتوضيحه من غناء الحاكي بأقراصه بعد ملئها بالأغاني والأناشيد . ومن ترديد الحياة في العقل ؛ وعلى أسرطة الخيالة ؛ ليتمتع بها الجمهور . أو ليتناولها الملائة الأعلى بحكم أو تجريح .

هذه هي الحالات الفكرية ؛ كما نتاج ينعكس على الأعصاب ؛ فيأخذها إلى انتباه ، وشعور بالحياة . أما كيف تتكون معه صور الحياة . أو كيف يؤثر في الأعصاب تأثيرا طبييا . أو لاسلكيا فسأتناوله بشيء من التوضيح .

لقد حاولت كثيرا ؛ لأهتدى إلى الضوء الذرى الذى نعيش فيه ، ومقدار اختراقه للأجسام ؛ فكنت أختنفى تحت مياه الأنهار ؛ وفيما يقرب من الشواطىء ؛ وفي نقط يكسوها الظل . أو تتسلط عليها أشعة الشمس . وكنت أرغم نفسى على فتح جفنىّ في باطن الماء ؛ فأرى ضوء الشمس ينير القاع ؛ كما ينيره في نقط تقرب من سطح الماء . وكنت أرى الظل يمتاز بطبقاته في الماء عن طبقات الضوء به .

لم أكتف بهذا . . . ؛ بل كنت آخذ أواني معتمة ؛ فأملؤها بالماء ؛ ثم أساط إلى داخلها . من فتحات ضيقة شعاعا من ضوء البطاريات الصغيرة ؛ فأراه ينير الماء ، ويتسرب إلى جميع أجزائه .

حينئذ علمت أن هذا الضوء الذرى لا يحول دونه حائل . وحينئذ فهمت قوله تعالى : « أَيْنَمَا تَكُونُوا . يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ . وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ » ؛ كما استطعت أن أفهم قوله تعالى على لسان لقمان : « يَا بُنَيَّ إِنِّي أَهْبَأُ

إِنَّ تِلْكَ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ؛ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ^(١) أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ .
أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

ولقد قلت في نفسي أخيرا ؛ لو انتقلنا بسلاح الكشافات تحت الماء ؛
فربما نستطيع أن نعيش فترة بين أحيائه . أو نستطيع أن نتخذة ضد الغواصات ؛
فنخفف من ويلات الإنسانية في حروب قادمة .

هذا إلى أن الماء قد خفي علينا شأنه ؛ كجميع للصور . أو مجمع للضوء مع
ما يحمله من هذه الصور .

إننا في الواقع إذا نظرنا إلى جزء مظلل من الماء ؛ وفي مستوى سطحه ،
نرى لنا صورا على سطحه . وهذه الصور قد نراها أيضا مع أجسام ذات لمعان ..
أو في زجاج مظلل . وكلما زدنا في تظليل هذه الأجسام استطعنا أن نرى هذه
الصور بشكل أوضح .

هذا هو ما قام عليه اختراع المرايا ، وتلك هي أقصى ما وصلت إليه هذه
الأجسام ؛ لتجميع الصور من هذا الضوء ؛ لتري بوضوح . وعلى هذا الأساس
خلقت حاسة البصر ؛ لتري ، وتبصر بها الأشياء .

إننا إذاً نستطيع أن نسأل أنفسنا . . . كيف نرى ، وتبصر الأشياء ؟ . . .
فنجد منها الجواب

(١) هذا إلى أن الصخور لها مع هذا الضوء صور كهربية استطاع بها من الماء الأعلى
رؤية دقائقها ؛ كما استطاع بكشف الأشعة رؤية كسور العظام .

إن هذا سفر وظيفته هذا الضوء ؛ إذ يتخلل مائة العين بما يحمله من صور يتخيلها الإنسان ؛ كما يتخلل طبقات الماء . ولكنه يتفاعل مع تكوينها المعدني ؛ لتستمد منه هذه الصور شيئا تصل به إلى وضوح .
هذا الضوء . أو هذه الصور إذا تجمع للعين منها جزء قامت العدسة بتجميعه خلف إنسانها ؛ فيلقى تظليلا منه ؛ يصل به إلى الحالة التي نراه عليها في المرايا ؛ لاسوداده . أو لقربه من الأسوداد ، وتحول مائة العين خلفه إلى ما يشبه سطوح المرايا .

فإذا أمكن للإنسان أن يمدّ هذه الصور بشيء من تكبيره ازداد تكوينها الكهربى ، واستعدت الأعصاب أن تحملها إلى فراغ من المخ ، وبين خلاياه ؛ لتلقى تظليلا أكثر ، وتفاعلا من أخيلته ، تصل به إلى صحة بعد خطئ . أو وضوح بعد إبهام ، وغموض .

هذا التظليل الذى يخلف إنسان العين يصل إلى أعصاب المخ على شكل مخروطى ، وعند نهايته تتضاءل هذه الصور ؛ كنتيجة . أو عمل لعدسة العين .
وحينئذ تستطيع هذه الصور أن تنفذ مع هذا الضوء من منابت الشعر ، ومن أنابيبه ؛ لتتصل بصورة المرء الأساسية ؛ التى تسامته فى السماء .
هذه الصور الضئيلة هى التى يقوم عليها الانتباه ، والشعور بالحياة ، وإبصار المرئيات ؛ كنتيجة لترددتها فى جو يشبه المرايا يعيش فيه الإنسان .
أو تحيا فيه الروح .

هذا . . . وكلما كان الشعر فاحما . أمكن أن يزيد هذه الصور وضوحا ؛ ولهذا القصد كسيت الرءوس به . وإن اختلفت ألوانه .

ولقد فكرت كثيرا في اللاسلكي ؛ كفن نستطيع أن نصل به إلى التصوير في يسر ، ومن غير تكاليف . فما وجدت له خيراً من نظرية تجميع الصور بالمرآيا . وإذا كنا بها نرى ، ونبصر الأشياء فإننا لا نعجز عن أن نصل بها مع هذا الفن إلى التصوير .

إن ذلك لن يتجاوز تزويد كل جهاز استقبال بللمبة إضاءة عادية . كرية الشكل ؛ تطل من الخارج بطلاء أسود ؛ لتتحول من الداخل إلى مرآيا . ثم صندوق بلورى . يحول من الداخل أيضا إلى مرآيا ، ويزود أيضا من الداخل بللمبات إضاءة عادية ؛ من غير تلوين ، ويحتفظ بأحد جوانبه من غير تلوين أيضا ، ويظل بستارة مما تتخذ منه الأشرطة ؛ ليكون ؛ كشاشة بيضاء ؛ تنعكس عليها الصور ، وربما تحتاج هذه الشاشة إلى تظليل آخر ، وفي فراغ آخر .

هذا . . . وإذا اتصلت هذه اللمبات بتيار كهربى واحد مع تيار الجهاز قامت الللمبة الكرية السوداء مقام إنسان العين ، وقام الصندوق البلورى مقام تجويف بين خلايا المخ ، وعظام الرأس ؛ لإحداث تظليل تتكون فيه الصور . وقام هذا التيار الكهربى مقام تفاعل بين إنسان العين وحبته . أو بينه وبين الأعصاب .

هذا هو الأساس الذى قام عليه فن التصوير بالآلة العادية ، وهو عين ما توصل إليه الطب فى كشف الأشعة لكسور العظام . أما قدرة الإنسان على رؤية هذه الصور قبل أن تنتشر فى مائة العين فإن يكون إلا من السطح الخارجى للجنف ؛ وكنتيجة إرسال من صديق لصديق .

أما أجهزة الإرسال فتزود أيضا بمثل هذا الصندوق البلورى السابق

نشرحه . ولكن يستبدل بشاشته عدسة كبيرة ؛ ويتصل مع لمبته السوداء بمجموعة الصوت ؛ ويستغل ؛ كآلة دائمة لتصوير الحفلات ، ونقل الأفلام لأجهزة الاستقبال .

هذا ما أراه . وربما يؤدي هذا الغرض تغطية جدر حجرة الإذاعة بالمرايا ؛ وتزويدها بهذه اللامبات العادية ؛ في نفس المرايا ، وجمع أسلاكها إلى صندوق تظليل كبير ؛ لتتصل باللمبة السوداء ؛ في أى وضع مع مجموعة الصوت .

هذا . . . وربما كان من الواجب تفرغ هذه الصناديق أيضا من الهواء . وربما كان بناء حجرة الإذاعة على نظام القباب مما يساعد على تجميع الصوت ، وعدم انتشاره ؛ وليكون له صدى في الأذن ؛ لتناسبه مع تكرور في العين . أو في الرأس . وهذا أمر قد شهدته ، ولاحظته في إذاعة صلاة الجمعة من جامع « محمد على الكبير » بالقاهرة ، وقد امتاز بها دون غيره من الجوامع . وربما كان الارتفاع بحجرة الإذاعة إلى هذا العلو مما يساعد أيضا على تحقيق هذا الغرض .

وحرارة الأعصاب يستمدّها الإنسان من روحه ، ومن تفكير يتطابق به مع ما زوده بها من أخيلة .

هذه الحرارة لا يُرعى لها ضوء في أعصاب الجسم وإنما يُرعى ذلك في أعصاب الروح ؛ لذلك كانت الأعصاب أعقد من كفة حابل ؛ لتستطيع أن تدخر من الحرارة ما يكفي لغذاء الروح .

هذا أمر نلمسه في الآلات الكهربية . فالأسلاك ما دامت مستقيمة . فلا يظهر للتيارات الكهربية بها ضوء مهما زادت طاقتها . وإنما يكون ذلك إذا

كانت حلزونية . أو أفْرِغَ لها الهواء ؛ كما نرى ذلك في لمبات الإضاءة ، والمدافئ ، والسخانات ؛ ولذلك أيضا كانت أعصاب المخ في اعوجاج . وفي المخيخ على التواء .

ولحرارة الأعصاب تأثير حثي ؛ كنتيجة أخيرة لعمليات الهضم . ذلك أنها تساعد على فناء ما يتخلف بالدم من فضلات مخاطية . أو دهنية . أو قلبية . منهما ؛ حتى لا تشحم بها الأعصاب ، وتؤدي بالجسم إلى السمنة ؛ التي يفقد معها حيويته .

وفناء هذه المواد يحتاج إلى إجابة تفكير . أو إجهاد في العمل ؛ لتخرج مع العرق إلى ظاهر الجسم . أو لتحمل الأعصاب تصفية منها إلى النخاع الشوكي ؛ لتفرز في الاختلاط الجنسي . وحينئذ تكون قد حملت معها جزءاً من عصارة المخ ؛ يساعد على تحقيق النسل .

قال تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ ، وَالتَّرَائِبِ ^(١) . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ » .

هذه المواد يقول الطب فيها إنها كرات دموية بيضاء . والواقع غير ذلك ؛ إذ الدم لا يعرف إلا بلونه القرمزي . وكلما زادت فيه نسبة هذه المواد كان الإنسان على فقر دم . أو على استعداد لمرض تزداد به حرارة الجسم ؛ لتأخذ هذه المواد سيرها الطبيعي ؛ ولهذا يعمل الطب فناءها من الجسم بعد المرض ؛ وإن كان التعليل على خطأ في التقدير ؛ إذ يقول إنها هي التي تلتهم جرائم الأمراض وتنفى معها ؛ كنتيجة لهذا الصراع .

(١) الترائب : عظام الصدر .

ومما يساعد على فناء هذه المواد تناول المشروبات الساخنة على أنواعها المختلفة قبل تناول الطعام بمالا يقل عن ساعة . أما في الأحوال العادية . فيكتفى بتناول المشروبات الباردة ، والفواكه ، والحلوى بهذا النظام . وقدرة الحلوى ، والفواكه ، ومشروباتها ، ومشروبات غيرها على أداء هذه الوظيفة بهذا الترتيب في تناول الطعام يرجع إلى ما بها من مواد كحولية ؛ تساعد على فناء ما يتخلف بالأمعاء من فضلات بعد كل وجبة . هذا إلى أن ذلك يحقق للجسم ، والأمعاء قدرة على الاستفادة من كل وجبة جديدة . هذا مع تناول كل وجبة على جوع ، والامتناع بتاتا عن تناول أى شيء بين كل وجبة ، ووجبة من فضلات الطعام ؛ كالتمرس ونحوه . والإقلال من تناول الشاي إذ يؤدي إلى احتراق صور الإنسان . وعدم تناوله بعد الأكل . هذا وتناول الحلوى بعد الطعام مما يضر بهذا النظام .

هذا نظام لو اتبع مع نساتنا لوصل بهن إلى جمال يذرى بجمال يعتمد على استعمال المساحيق . أما سمر الوجوه فأرى لهن وجبة عشاء في بعض الأحيان من أرز فقط . على بياضه ، بعد تشبعه بالمسلي على النار .

هذا مع الاستحمام بالماء المغلى في كل ذلك ؛ وخاصة الرأس ، والاكتفاء للوجه بالماء البارد ، والصابون ؛ ولأكثر من مرة في اليوم .

هذه تجارب قد لمستها بنفسى ، وستؤدى إلى نتيجة ؛ ولكنها يجب أن تصحب بحالات تربية في تقويم الخلق ، وتكوين الشخصية ؛ لنصون بها هذا الجمال عن الابتذال .

هذا . . . وقد يزول تجعيد . أو خشونة بالشعر بغسل الرأس بماء يغلى ؛

ولو فيه مشقة على النفس ؛ ثم تسريحه ، وتدثيره بسرعة بعد الغسل ، وعدم
تعرضه للهواء لمدة نصف يوم .

والاستحمام بالماء المغلي ؛ وخاصة الرأس قد شهدت أثره في القضاء على
فضلات تحملها أعصاب الأمعاء^(١) . أو خلايا الجسم فتضر به . ولعل هذا
ما يقصده سبحانه بقوله . « يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا
فِي بُطُونِهِمْ ، وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ سَقَامِعٌ^(٢) مِنْ حَدِيدٍ » .

وخلايا المخ حينما تستنفذ على شكل عصارات مع التفكير تأخذ طريقها
الطبيعي إلى القضاء ؛ بحيث لا يستطيع تكوينها مرة ثانية للمخ . وهذا ما جعل
الأطباء يقولون : « إن خلايا المخ لا تعوض » .

وغناء هذه الخلايا لا يضر بالإنسان ، ولا يؤثر في توازنه العقلي ؛ إذا كان
ذلك عن حكمة ، واتزان في التفكير .

هذه العصارة تتساقط في بويضات التناسل قطرة قطرة . ولا تستنفذ من
هذه البويضات مع الإفراز الغرزي إلا قطرة قطرة . وهي في كل ذلك ؛
كقطب سالب ؛ لما تحمله الأعصاب من هذه الإفرازات المتخلفة عن
عملية الهضم .

وهذا الإفراز . إن لم يكن عن تفكير . ينتهي بالمرء إلى الحلال ،

(١) خروج هذه الفضلات من الجلد أمره واضح . أما من الأمعاء فتخرج مع التدفئة
الشديدة على شكل مخاط « بلغم » يكون في الأصل رخوا ؛ ثم يتجمد تدريجيا ؛ مع المواظبة
على هذا النوع من الاستحمام ، وقد ينتهي بهذا أمره من الأنف . أو الصدر .
(٢) لعل هذه المقامع كناية عن مشارط الطبيب ، وآلاته الحديثة .
(١٠ — البعث)

وضعف في اختلاطه الجنسي ؛ كما أن الإجهاد فيه بوسائل غير مشروعة . من تناول الخمر ، وتماطى المحدرات يؤدي إلى تفتت خلايا المخ على غير نظام . ربما يذهب معه العقل .

والإجهاد العادي في هذا الإفراز — أى من غير تفكير — لا يدع لهذه الخلايا طريقا إلى الفناء ؛ ويقتصر أمره على ما تحمله الأعصاب فقط ؛ فيشعر الإنسان دائما بنوع من العبادة . أو شيء من الكسل ؛ لبقاء المخ بها على ثقله النوعي .

والأعصاب عند ما تنقطع الصلة بينها ، وبين خلايا المخ ؛ كنتيجة لهذا الإجهاد ، تأخذ معها الكثير من فتات عظام الصدر . فتعكس بيضا في الشعر .

وفناء خلايا المخ بنظام علمي لا يسرع بالمرء إلى الشيب ، ولا يأخذه عند الشيخوخة إلى تخريف . وهذا أمر يجب أن تتسع له وسائل التربية في المراحل الأخيرة من التعليم الثانوي ، وفي الجامعات . وخير للمرء أن لا يكون لمح خلايا إلا ما يبطن الأعصاب ؛ ليتسع صندوق تظليل ؛ تتكون فيه صور المرئيات .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

هَذَا خَلْقُ السُّيُوفِ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

التفريق بين الصواعق

كلنا لا يجهل أثر الهواء في انتعاش الجسم ، وتصحيح وضع الروح ،
وكلنا يجب أن يفهم أننا مراكز حرارة ، أبلغ من الشمس أثرا في تبخير لجة
العالم ، وتحويها إلى مياه غازية ؛ تتسامى معها الروح .

ولقد درسنا في علم الجغرافيا ما لحرارة الشمس من أثر في خلخلة الهواء
في بعض مناطق الأرض ، وعلمنا أن ذلك يجعل طبقات أخرى منه إلى مناطق
ضغط ؛ تمتاز بالعواصف ، والأعاصير .

هذا الضغط الجوي . أو هذا الهواء المتساقط في شدة ؛ ليخلف المتصاعد
منه هو الذي تحفظ به الأشياء على سطح الأرض ، وهو الذي يحفظ به الإنسان
توازنه على هذا السطح ؛ في أي موضع من مواضعه . في شمال الكرة
الأرضية . . أو جنوبها .

هذا . . إلى أن الإنسان بزفيره ، وشهيقه يحدث لنفسه مثل هذه المناطق ؛
فيساعد على حفظ جسمه ، وتوازن روحه .

هذا الهواء المتساقط ، أو هذه الضغوط للأجواء هي ما يمكن أن نتخذها
علة ؛ لتساقط الأجسام على الأرض . هذا إلى أن هذه الأجسام ذات ثقل
نوعى ؛ لا تستطيع به أن تحفظ لنفسها بمرکز في الهواء ؛ فتضطر إلى الهبوط .
ولقد قال علماء : إن هذا التوازن يرجع إلى شيء سموه جاذبية ، وفرضوا
لها فروضا لا يؤيدها العقل ؛ ولا تعتمد إلا على التخمين . وحينما شاهدوا

تفاحة تقع من أعلى شجرتها على الأرض اتخذوا ذلك علة . وقالوا : إنها سقطت بالجاذبية . ولم أدر لم كم يقولوا : إنها سقطت بالثقل النوعي للأجسام .
ولقد قالوا : إن الأجسام الكبيرة تجذب الأصغر . فالأصغر . وأن الشمس هي أساس نظرية الجذب ؛ ولكن من يصدق هذا إن من يصدقه يجب أن يقر بعقل في هذه الأجسام ؛ كمؤثر ، ومحدث لهذه الجاذبية ، وإلا فأين مناطق التصديق ؛ التي يعتمد عليها هؤلاء العلماء .
ولقد قالوا : إن الأرض مغناطيس كبير ، ولكننا نمشي عليها ؛ فلا نجد لهذه المغطسة أى أثر ؛ على أن هذه المغطسة ما عرفت إلا في بعض حجارة منها ؛ وعلى ندرة .

هذا إلى أن المغطسة التي ندرسها في علوم الطبيعة لا نصدقها إلا إذا التصق أحد الجسمين بالآخر . وهذا لا تقره المشاهدة لوضع الكواكب مع الشمس ؛ بل إنها تنفصل عنها بطبقات ، وطبقات من الهواء ، والأجواء ؛ على كل نوع . وقد تصل البرودة في بعضها إلى الدرجة التي يجمد بها الدم في الشرايين .

إن للعالم وضعاً آخر غير ما نفهمه عليه . فهذه الكواكب التي يقدر لها العلماء حركة حول الشمس كواكب ثابتة . وما قدر لها من حركة محض تخمين . أو افتراء على العلم . وإني ما تعددت أقمارها إلا لأنها لا تعرف هذه الحركة الإلتفافية ؛ التي عليها الأرض ، وقمر الأرض .
هذا الوضع قد بينه لنا القرآن في كثير من آياته . قال تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ . وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » .

هذا البناء بالأيدى إما أن نفهمه تكويينا لصور الحياة في صفحة السماء .
وإما أن نفهمه مادة ، ووضع لبنة على لبنة ؛ ولو عن طريق المجاز ؛ ليكون
العالم كرة مفرغة من الفولاذ . تتوسطها هذه الكواكب مع الشمس ؛ على أن
كلا الوضمين صحيح في المادة ، والغرض الفكري ؛ حتى تظهر الحياة واضحة
للملأ الأعلى ، ويكون لها رنين . ويكون لها صدى ، وضوضاء في الأجواء
العليا من السماء .

والسكواكب مع النجوم الثواقب في هذا الوضع لا يمكن أن نفهمه ؛
على أنه بناء ؛ كما يفسره بعض العلماء ؛ إذ هذا البناء له فهم آخر أسمى من هذا
الفهم ، وله وضع آخر يتسامى مع العقل ؛ على أنه سبحانه يقول في شأنه :
«وَأِنَّا لَمَوَسِعُونَ» وسعة في البناء لا تتفق وضالة كل كوكب مع سمائه ؛
هذا إلى أن لفظ سماء ذكر مفردا في هذه الآية .

قال تعالى في مفازة بين خلق إنسان ، وخلق سموات : «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ
الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ ، وَالْأَرْضِ . وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» .

لقد حاولت أن أجعل خلق السموات في وضع النجوم والسكواكب
بهذا الوضع مثلا أعلى فما وجدته ينطبق مع صور أرقى في التفكير تخيلاتها لهذا
الكون ؛ على أن وضع هذه الأجرام السماوية بهذا الشكل ليس فيه قدرة
أو اقتدار . إنه يقوم فقط على التفاوت في الكثافة بين طبقات الجو ؛ كما
يقوم على التفاوت بين هذه الأجرام في الثقل النوعي .

هذه الأجرام قد أخذت هذا الوضع حسب هذا الثقل النوعي لها . وإن
ذلك أشبه برميها لجملة أجسام ؛ في أحجام ، وأوزان مختلفة في قاع محيط .
فمنها ما يهبط إلى القاع ، ومنها ما يقف في منتصف الطريق . أو يطفو على

وجه الماء . أو في نقط قريبة من السطح . فإذا فرض أن لا قاع هناك ؛ فعلى
أى حالة يكون أثقل هذه الأجسام . إنه لا بد وأن يقف به المهبوط في نقطة
ما . . . من الكون . ما دام قد تنوع في طبقاته بين ماء ، وغاز . أو بين
ماء ، ولجج منه .

هذا إلى أن هذا الهواء قد أثبتت التجارب الكيميائية خفته في الطبقات
العليا من الجو . وربما يكون من غاز الهليوم فقط في الطبقات التي وقفت دونها
قدرة الإنسان .

هذا . . . وبناء بغير عمد قد فهمه البنائون ، وعرفوه في نظام القباب .
وسماء بغير عمد لا يصدق لها تفسير إلا إذا كانت على هذا النوع من البناء .
أو على الأقل ؛ حتى لا تتلاشى الموجات الكهربية بما نحمله من أصداء الحياة^(١) .
قال تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ . تَرَوْنَهَا » . أما الرؤية في
ذلك فخطاب لمن فوقنا . أولنا . ومن رؤية العقل ، ورؤيا الخيال .
على هذا يمكن أن نفهم قوله سبحانه . « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ
السَّمَوَاتِ ، وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ؛ فَمَتَّقْنَاهُمَْا . وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ
حَيٍّ . أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ . وَجَعَلْنَا
فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ؛ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا . وَهُمْ عَنْ
آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ » .

(١) لقد وقعت لي تجربة عرفت بها مدى هذا الصدى . ذلك أني كنت أفترش أرض
حجرة مغلقة النوافذ ، على حصر فقط ، ثم ألصق إحدى أذني بالسادة ؛ بحيث لا يتسرب
إلى داخلها شيء من ضوضاء الحياة ؛ فكنت أسمع من يتحادثون في مثل هذه الحجرة من
طابق يعلوه طابق .

وضغط الجو هو الذى تسقط به الأجسام المفرغة المسكفاة على الماء إلى القاع . فلو فرضنا أن لاهناك ضغط جوى ، وأكفأنا سفينة على الماء ؛ فإنها يستمر عالقا بها سطح الماء . دون أن تهوى إلى القاع . وفى الإمكان أن تحمل وهى فى هذا الوضع أجساما ذات ثقل محدود .

وبقاء العالم حافظا لتوازنه ؛ ككرة عظيمة من الفولاذ؛ انفصل عنها؛ ومن قطبها الجنوبي ما يقرب من السدس ؛ ليسمح بإفراغ الهواء ، وتجديده فى داخلها ... يقوم على هذا الفرض النظرى . هذا إلى أن تخلخل الهواء بداخلها؛ نتيجة ما محتويه من مرا كز متعددة للحرارة . مما تتسابق به تيارات الهواء إلى الداخل ؛ فتساعد على رفعها فى طبقات الجو ، وتعمل على حفظ توازنها .

وتخلخل الهواء بالحرارة ؛ ليتصاعد ؛ وليخلفه غيره هو ما تتحقق به دورة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس .

هذا الهواء المتخلخل فى المنطقة الاستوائية . حينما يتجه إلى الغرب مع ميل إلى شمال أو جنوب يأخذ وجهة النازل من ترام سريع إلى الخلف ؛ ليحتفظ بتوازنه على الأرض .

والأرض حينما تتجه فى دورتها إلى الشرق . وحينما يتساقط الهواء بسرعة ؛ ليخلف المتخلخل^(١) منه يأخذ هذا الهواء وجهة أخرى فى منطقتى الأرض المعتدلتين ؛ فينتجه إلى الشرق مع ميل إلى شمال . أو جنوب .

هذا الاتجاه الذى يأخذه هذا الهواء المتساقط . لا يمكن أن نعمل له بدورة الأرض إلى هذا الاتجاه ؛ إذ الهواء لا يأخذ وجهة الأجسام المتحركة فى نقط

(١) الهواء المتخلخل لا يساعد على دورة الأرض ؛ إذ هو هواء متصاعد ، ولا يتصادم ،

نزبية من السطح ؛ بل يرتد إلى الخلف ؛ كما نشاهد ذلك خلف العربات إذا سارت بسرعة .

هذا الهواء المتساقط في حد ذاته علة ومؤثر ، ومحدث لحركة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس ، وهو الذي يأخذ الأرض إلى هذا الاتجاه من منطقتيها المعتدلتين . هذا إلى أنه عند تساقطه يتصادم مع الأرض ؛ فيساعد على تحقيق هذه الدورة .

هذا . . . وإذا راجعنا جبال الأرض ، ومرتفعاتها على الخرائط نجدها يغلب عليها الاتجاه من الجنوب إلى الشمال ، كما يغلب عليها أن تكثف الشواطئ ؛ وخاصة الغربي منها ؛ فتلقى من تجاويف المحيطات تيارات أقوى ، وأشد .

هذه التيارات حينما تتصادم مع الجبال يتحقق لها قوة دفع تساعد الأرض أيضا في دورتها حول نفسها ، وحول الشمس .

وحينما تتقابل رياح المنطقتين المعتدلتين برياح المنطقتين القطبيتين تتقابل معها على تضاد ؛ فتصير للأرض في حركتها تلك ؛ كبتوس تدار بها الآلات بما تحدثه من عواصف ، وأعاصير . ربما تقتلع الأشجار في بعض الأحيان .

هذه العواصف عند ما تزداد مساحتها من الأرض في نصفها الشمالي شتاء هي التي تدفع الأرض إلى الجنوب ؛ لتتعامد الشمس على مدار السرطان وعندما تزداد مساحتها في الجنوب شتاء . تدفع الأرض إلى الشمال ؛ لتعود الشمس إلى تعامدها على مدار الجدى . وهكذا دواليك .

هذا ما يمكن أن يقره العقل ؛ لحدوث صيف في أحد نصفي الكرة الأرضية ، أو العكس . أما القول بميل محور الأرض بقدر ما . . . ليتخذ علة

ليُذه الأحداث ، فتخمين لا تعتمد على تجربة . أو مشاهدة ؛ حتى نقره نظرية من نظريات العلوم .

أما دورة الأرض حول الشمس فدورة ثانوية لحركتها حول نفسها ؛ إذ لا يكون بعد الحركة ، والدفع إلى انتقال من نقطة إلى نقطة ، وأما احتذاؤها فلحركاتها في هذه الدورة ؛ فنتيجة لإحاطتها بقوى دفع من الهواء من كل جهة ؛ يجعلها لا تشدّ عن هذا المدار .

هذه القوى حينما تدفع الأرض من ناحية الشمس ؛ لتخرج عن مدارها تجدد في الوقت نفسه ، وفي جانبها الآخر . أى في الليل — قوى دفع أشد ؛ كنتيجة تبريد يعم هذا الجانب ؛ فتردها إلى المدار إن خرجت عنه . وهكذا دواليك .

هذا ... وللأرض حركة تفرغ هوائية أخرى حول نفسها . ترميها على بعد ؛ بعيداً عن السطح . ذلك أنها بما يكتنفها من مرتفعات ، وما يكتنف هذه المرتفعات من أغوار ، تحدد لها شكلاً ، لا يفترق عن المراوح الكهربية في شيء ؛ في الشكل . أو الغرض .

هذه الحركة الهوائية ، هي التي تدبر القمر حول نفسه ؛ وتحدد له دورته في مداره ؛ على نحو ما سبق بيانه في دورة الأرض ، وفي الإمكان رؤية هذه الحركة الهوائية بالعين المجردة على سطوح الأجرام السماوية في وقت مناسب من الليل ؛ لما تحمله من غبار الأرض .

هذا إلى أن انتقال الأرض في مدارها مما يساعد على أن ترمى بحركتها

الهوائية الإلتنافية تلك خلف القمر ؛ فتجعله لا يفلت منها إلى الكواكب .
أما من ناحية الشمس فإنه يعتمد في توازنه على التفريغ السطحي له لقر به منها .
ولقد قال بعض علماء الفلك عندما شاهدوا تلالؤا على سطوح هذه
الأجرام . إن ذلك نتيجة دورة هذه الأجرام حول نفسها . أو حول بعضها .
والواقع لا يقر ذلك ؛ إذ لم تكن عصفير . أو في حجم العصفير ؛ حتى نصدق
لها هذه الحركة .

أما هذا التالؤ . فهو تدفق هذا الهواء حينما يعترض سطوح هذه الأجرام
ورؤية من العين .

توقيت علمي

ومعارف علم الفلك للتوقيت ما زالت ضئيلة . وبها جمود . وما زالت .
تحتاج إلى دليل . أو برهان من العقل ؛ إذ تقوم على التخمين لا غير ، وعلى
المشاهدة لوقتي الغروب ، والشروق لمدة حسبت أساسا لهذا التوقيت .

هذا التوقيت على هذا الأساس التخميني نجده عند تداخل الليل في النهار
أو العكس يضيف دقيقة . أو دقيقتين إلى الغروب أو ينقصهما من الشروق . ثم
يسكت لمدة ؛ وكأن الشمس قد توقفت عن الشروق أو الغروب لهذا القدر . أو
تعثرت في طريقها ؛ حتى يضاف هذا القدر دقيقة واحدة لفترة . . . ويضاف
في أخرى دقيقتين .

وتداخل الليل والنهار خارج المدارين هو الذي شق به علم الفلك ؛ ولم
يهتد فيه إلى حساب زمني ؛ يرتضيه العقل ، ويطمئن إليه العلم . أما فيما بين
المدارين فقد استراح منه هذا العلم ؛ لضالة القدر الذي يتفاوت به ليل عن
نهار طوال أيام السنة .

· وحركة الشمس الظاهرية حول الأرض من شرق إلى غرب قد
فهمناها ، وأقمنا لها توقيتنا « $360 \div 24 = 15$ في الساعة . بمعدل أربع
دقائق لكل درجة . أو دقيقة واحدة لكل ربع درجة » : أما حركتها إلى
الشمال . أو العكس فقد جهلناها ، وجهلنا أثرها ؛ كنظام علمي . أو توقيت
يتعدد به شروق الشمس ، وغروبها في نقط ، وأوضاع مختلفة . خارج المدارين .

هذه النقطة الثانية للشمس تقطعها في ستة أشهر فيما بين المدارين من الشمال إلى الجنوب أو العكس « ٤٥ ° تقريبا ÷ ١٨٠ يوما تقريبا . أى بمعدل ربع درجة لليوم الواحد » .

فإذا فرضنا الشمس متعامدة على مدار الجدى . ثم انتقلت إلى الشمال في نقطة بهذا القدر من المسافة . أى ربع درجة بعد يوم على خط زوال ما . . فإنها ترتفع على هذا الخط ، وفي هذه النقطة في سمت السماء بمقدار هذا الربع . وهذا يستدعى بقاءها في الجو لمدة ما ؛ حتى تقطع هذا القدر من المسافة على سطح الأرض .

هذه المدة من الزمن عند تكررها يوما بعد يوم . وعند ازدياد هذه المسافة يوما بعد يوم تتعدد أوضاع الشروق والغروب في كل نقطة على هذا الخط ؛ كما يتفاوت الليل عن النهار يوما بعد يوم بهذا القدر من الزمن ؛ لتقطع الشمس فيه هذه المسافات يوما بعد يوم .

هذه المسافة . أى الربع درجة . قد تكون مساحة أرضية في نقط قريبة من المدارين . وإكبتها عندما تتلاشى مع انحاء الأرض ؛ وفي كل نقطة تعلو الأخرى تحسب نقط ارتفاع للشمس في سمت السماء بهذا القدر . أما هذا . القدر من الزمن ؛ الذي تقطع فيه هذه المسافة على الأرض أو مقدرة في سمت السماء فقد يكون دقيقة في النقط القريبة من المدارين . أما فيما يبعد عنهما ؛ فيتراوح بين دقيقتين حسب تفاوت بعد كل نقطة عن أحد المدارين

وربع الدرجة هذا حينما ينكشف للشمس من سطح الأرض . أو من أفق السماء إلى الشمال . أو العكس ينكشف لها أيضا إلى شرق . أو غرب ؛

لنقطعه في دقيقة أو دقيقتين . . . إذ أنها تقطع المسافة من مدار الجدى إلى الشمال . أو العكس في حركة مركبة من جنوب إلى شمال . أو العكس . ومن جنوب شرقى إلى شمال غربى . أو العكس . هذا مع حركتها الأصلية من شرق إلى غرب . أى أن خط سيرها على الأرض يأخذ شكلا حلزونيا من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى . أو العكس .

أما هذه الدقيقة التي قدرت لهذه المسافة في نقط قريبة من أحد المدارين فهي التي سبق تقديرها لكل ربع درجة تقطعها الشمس من الشرق إلى الغرب .

والشمس عندما تتعامد على مدار الجدى في ٢١ يناير على خط زوال ما . ثم تأخذ في الانتقال إلى الشمال تكون بعد أربعة أيام قد ظهرت على كل نقطة تتلاقى فيها خطوط العرض الشمالية . مع خط الزوال هذا بمقدار درجة . وهكذا دواليك ؛ حتى تنتهى الستة أشهر .

فإذا أردنا أن نقوم زمنا لمدة ستة أشهر لنقطة تقع مثلا على خط عرض 30° شمالا فإننا يجب أن نضم إليها خطوط العرض الجنوبية أى 22.5° تقريبا ليضرب المجموع في أرباع كل درجة أى « $4 \times 22.5 + 30 = 4 \times 52.5 = 210$ من الدقائق . أى ثلاث ساعات . ونصف ساعة » .

هذا القدر من الزمن . هو الذى يتفاوت به ليل عن نهار على مدار السنة في هذه النقطة . فإذا تعامدت الشمس على مدار الجدى كانت زيادة ليل عن نهار في هذا اليوم ، أى ٢١ يناير ، في هذه النقطة . هي هذا القدر من الزمن . أى ثلاث ساعات ونصف ساعة .

فإذا وصل التعامد لمدار السرطان ، كان العكس ، وكانت الزيادة للنهار على الليل بهذا القدر في ٢١ يومية .

هذا القدر من الزمن إذا قسمناه على ستة أشهر يكون نصيب اليوم الواحد دقيقة ، وسدس دقيقة ، وهذا هو القدر الذي يتداخل به ليل في نهار أو العكس لمملكة . تقع على هذا الخط أى « خط عرض ٣٠ درجة شمالا » . وإذا أردنا أن نعين تقويما لمملكة تقع على خط عرض ٤٥ درجة شمالا يكون كالاتى :

$$22.5 + 4 \times 4.5 = 22.5 + 18 = 40.5 \text{ دقيقة} = 270 \text{ دقيقة} \div 180 \text{ يوما} = 1.5 \text{ دقيقة ونص} \text{ دقيقة} .$$

وهو القدر الذي يتداخل به ليل في نهار ، أو العكس لهذه المملكة .

وإليك نموذجاً لهذين التقويمين : —

١ — توقيت صيفي لمملكة تقع على خط عرض ٣٠ درجة شمالا .
أو جنوبا : —

ق	س
عدد ساعات الليل = $(24 - 3\frac{1}{4}) \div 2 = 10\frac{3}{4}$	١٥ : ١٠
عدد ساعات النهار = $10\frac{1}{4} + 3\frac{1}{4} = 13\frac{1}{2}$	٤٥ : ١٣
وقت الشروق = $10\frac{1}{4} \div 2 = 5\frac{1}{8}$	٥ : ٧ $\frac{1}{8}$
وقت الغروب = $12 - 5\frac{1}{8} = 6\frac{7}{8}$	٥٢ $\frac{1}{8}$: ٦

الشمس ق : س	فرق الزمن	المشروق ق : س	الأيام	الشمس
٦ : ٥٢ $\frac{1}{4}$	+ ١ $\frac{1}{4}$ ق	٥ : ٧ $\frac{1}{4}$	الخميس	٢٢
» » »	» » »	٥ : ٨ $\frac{2}{4}$	الجمعة	٢٣
» » »	» » »	٥ : ٩ $\frac{٥}{4}$	السبت	٢٤
» » »	» » »	٥ : ١١	الأحد	٢٥
٦ : ٥١ $\frac{1}{4}$	- ١ $\frac{1}{4}$ ق	» » »	الاثنين	٢٦
٦ : ٥٠ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »	الثلاثاء	٢٧
٦ : ٤٩	» » »	» » »	الأربعاء	٢٨
» » »	+ ١ $\frac{1}{4}$ ق	٥ : ١٢ $\frac{1}{4}$	الخميس	٢٩
» » »	» » »	٥ : ١٣ $\frac{1}{4}$	الجمعة	٣٠
» » »	» » »	٥ : ١٤ $\frac{1}{4}$	السبت	١
» » »	» » »	٥ : ١٥ $\frac{2}{4}$	الأحد	٢
» » »	» » »	٥ : ١٦ $\frac{٥}{4}$	الاثنين	٣
» » »	» » »	٥ : ١٨	الثلاثاء	٤
٦ : ٤٧ $\frac{٥}{4}$	- ١ $\frac{1}{4}$ ق	» » »	الأربعاء	٥
٦ : ٤٦ $\frac{2}{4}$	» » »	» » »	الخميس	٦
٦ : ٤٥ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »	الجمعة	٧
٦ : ٤٤ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »	السبت	٨
٦ : ٤٣ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »	الأحد	٩
٦ : ٤٢	» » »	» » »	الاثنين	١٠

ملاحظات :

(١) العدد (١٢) الذي طرح منه العدد ($٥ \frac{1}{8}$) هو مدة نصف يوم من وقت الزوال إلى منتصف الليل .

(٢) إذا أردنا أن نأتي بساعات النهار نضم عدد ساعاته بعد الزوال إلى خارج طرح بقية ساعات الليل من عدد الساعات عند الزوال . أي ($٦ \frac{7}{8}$) + ($٥ \frac{1}{8} - ١٢$) = $٦ \frac{7}{8} + ٦ \frac{7}{8} = ١٣ \frac{٣}{٤}$ = ٤٥ ق ، ١٣ س .

(٣) عندما يرجع الليل على النهار بما أخذه منه نضيف فرق الزمن ($١ \frac{1}{4}$ ق) إلى وقت الشروق لمدة ما . أو ننقصه من وقت الغروب لهذه المدة ؛ لنحتفظ بساعة الزوال عند الرقم (١٢) .

وعندما يرجع النهار على الليل بما أخذه منه شتاء يكون العكس .

٢ - توقيت شتوى لمملكة تقع على خط عرض ٣٠ درجة شمالا .

أو جنوباً : -

ق س
عدد ساعات النهار = ($٣ \frac{1}{4} - ٢٤$) ÷ ٢ = $٢٠ \frac{1}{4}$ ÷ ٢ = ١٥ : ١٠

عدد ساعات الليل = $١٠ \frac{1}{4} + ٣ \frac{1}{4} = ١٣ \frac{٢}{٤}$ = ٤٥ : ١٣

وقت الغروب = $١٠ \frac{1}{4} ÷ ٢ = ٥ \frac{1}{8}$ = ٧ : ٥

وقت الشروق = $٥ \frac{1}{8} - ١٢ = ٦ \frac{7}{8}$ = ٥٢ : ٦

الغروب ق : س	فرق الزمن	الشروق ق : س	الأيام	الشهر
٥ : ٧ $\frac{1}{4}$	ق ١ $\frac{1}{4}$ +	٦ : ٥٢ $\frac{1}{4}$	الجمعة	٢١
٥ : ٨ $\frac{2}{4}$	» » »	» » »	السبت	٢٢
٥ : ٩ $\frac{٥}{4}$	» » »	» » »	الأحد	٢٣
٥ : ١١	» » »	» » »	الاثنين	٢٤
» » »	ق ١ $\frac{1}{4}$ -	٦ : ٥١ $\frac{1}{4}$	الثلاثاء	٢٥
» » »	» » »	٦ : ٥٠ $\frac{1}{4}$	الأربعاء	٢٦
» » »	» » »	٦ : ٤٩	الخميس	٢٧
٥ : ١٢ $\frac{1}{4}$	ق ١ $\frac{1}{4}$ +	» » »	الجمعة	٢٨
٥ : ١٣ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »	السبت	٢٩
٥ : ١٤ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »	الأحد	٣٠
٥ : ١٥ $\frac{2}{4}$	» » »	» » »	الاثنين	٣١
٥ : ١٦ $\frac{٥}{4}$	» » »	» » »	الثلاثاء	١
٥ : ١٨	» » »	» » »	الأربعاء	٢
» » »	ق ١ $\frac{1}{4}$ -	٦ : ٤٧ $\frac{٥}{4}$	الخميس	٣
» » »	» » »	٦ : ٤٦ $\frac{2}{4}$	الجمعة	٤
» » »	» » »	٦ : ٤٥ $\frac{1}{4}$	السبت	٥
» » »	» » »	٦ : ٤٤ $\frac{1}{4}$	الأحد	٦
» » »	» » »	٦ : ٤٣ $\frac{1}{4}$	الاثنين	٧
» » »	» » »	٦ : ٤٢	الثلاثاء	٨

ملاحظات : -

- (١) العدد (١٢) الذي طرح منه العدد $(٥ \frac{1}{٨})$ هو مدة نصف يوم من منتصف الليل إلى وقت الزوال (١٢) .
- (٢) يستحسن عند الشروع في عمل تقويم على هذا الأساس أن يضاف أو ينتقص فرق الزمن يوميا .

٣ - توقيت صيفي لمملكة تقع على خط عرض ٤٥ درجة شمالا ..
أو جنوبا : -

س	ق
عدد ساعات الليل = $(٢٤ - ٤ \frac{1}{٢}) \div ٢ = ١٩ \frac{1}{٢}$	$٩ : ٤٥ =$
عدد ساعات النهار = $٩ \frac{3}{٢} + ٤ \frac{1}{٢} = ١٤ \frac{1}{٢}$	$١٤ : ١٥ =$
وقت الشروق = $٩ \frac{3}{٤} \div ٢ = ٤ \frac{٧}{٨}$	$٤ : ٥٢ \frac{1}{٢} =$
وقت الغروب = $١٢ + ٤ \frac{٧}{٨} = ٧ \frac{1}{٨}$	$٧ : ٧ \frac{1}{٢} =$

الفرق ق : س	فرق الزمن	المسوق ق : س	الأيام	الشهر
٧ : ٧ $\frac{1}{4}$	ق ١ $\frac{1}{4}$ +	٤ : ٥٢ $\frac{1}{4}$	الخميس	٢٣
» » »	» » »	٤ : ٥٤	الجمعة	توفيق
٧ : ٦	ق ١ $\frac{1}{4}$ -	» » »	السبت	٢٤
٧ : ٤ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »	الأحد	٢٥
٧ : ٣	» » »	» » »	الاثنين	٢٦
» » »	ق ١ $\frac{1}{4}$ +	٤ : ٥٥ $\frac{1}{4}$	الثلاثاء	٢٧
» » »	» » »	٤ : ٥٧	الأربعاء	٢٨
» » »	» » »	٤ : ٥٨ $\frac{1}{4}$	الخميس	٢٩
» » »	» » »	٥ : -	الجمعة	٣٠
٧ : ١ $\frac{1}{4}$	ق ١ $\frac{1}{4}$ -	» » »	السبت	١
٧ : -	» » »	» » »	الأحد	٢
٦ : ٥٨ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »	الاثنين	٣
٦ : ٥٧	» » »	» » »	الثلاثاء	٤
» » »	ق ١ $\frac{1}{4}$ +	٥ : ١ $\frac{1}{4}$	الأربعاء	٥
» » »	» » »	٥ : ٣	الخميس	٦
» » »	» » »	٥ : ٤ $\frac{1}{4}$	الجمعة	٧
» » »	» » »	٥ : ٦	السبت	٨
٦ : ٥٥ $\frac{1}{4}$	ق ١ $\frac{1}{4}$ -	» » »	الأحد	٩
٦ : ٥٤	» » »	» » »	الاثنين	١٠

٤ — توقيت شتوى لمملكة تقع على خط عرض ٤٥ درجة شمالا
أو جنوبا : —

ق س

$$٩ : ٤٥ = ٢ \div ١٩ \frac{1}{٢} = ٢ \div (٤ \frac{1}{٢} - ٢٤) = \text{عدد ساعات النهار}$$

$$١٤ : ١٥ = ١٤ \frac{1}{٢} = ٤ \frac{1}{٢} + ٩ \frac{٢}{٢} = \text{عدد ساعات الليل}$$

$$٤ : ٥٢ \frac{1}{٢} = ٤ \frac{٧}{٨} = ٢ \div ٩ \frac{٣}{٤} = \text{وقت الغروب}$$

$$٧ : ٧ \frac{1}{٢} = ٧ \frac{1}{٨} = ٤ \frac{٧}{٨} - ١٢ = \text{وقت الشروق}$$

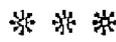
الغروب ق : س	فرق الزمن	الشروق ق : س	الأيام	الشهر
٤ : ٥٢ $\frac{1}{4}$	ق $1\frac{1}{4}+$	٧ : ٧ $\frac{1}{4}$	الجمعة	٢١
٤ : ٥٤	» » »	» » »	السبت	يناير
» » »	ق $1\frac{1}{4}-$	٧ : ٦	الأحد	٢٣
» » »	» » »	٧ : ٤ $\frac{1}{4}$	الاثنين	٢٤
» » »	» » »	٧ : ٣	الثلاثاء	٢٥
٤ : ٥٥ $\frac{1}{4}$	ق $1\frac{1}{4}+$	» » »	الأربعاء	٢٦
٤ : ٥٧	» » »	» » »	الخميس	٢٧
٤ : ٥٨ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »	الجمعة	٢٨
٥ : —	» » »	» » »	السبت	٢٩
» » »	ق $1\frac{1}{4}-$	٧ : ١ $\frac{1}{4}$	الأحد	٣٠
» » »	» » »	٧ : —	الاثنين	٣١
» » »	» » »	٦ : ٥٨ $\frac{1}{4}$	الثلاثاء	١
» » »	» » »	٦ : ٥٧	الأربعاء	٢
٥ : ١ $\frac{1}{4}$	ق $1\frac{1}{4}+$	» » »	الخميس	٣
٥ : ٣	» » »	» » »	الجمعة	٤
٥ : ٤ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »	السبت	٥
٥ : ٦	» » »	» » »	الأحد	٦
» » »	ق $1\frac{1}{4}-$	٦ : ٥٥ $\frac{1}{4}$	الاثنين	٧
» » »	» » »	٦ : ٥٤	الثلاثاء	٨

ملاحظات : —

- ١ — هذا النظام التوقيتي لا يمكن تطبيقه بعد خطي عرض ٦٠ درجة شمالاً ، وجنوباً ؛ وفي بعض جهات ترتفع . أو تنخفض عن المستوى العام الذي يجب أن تأخذه الأرض ؛ ككرة تامة التكور .
- ٢ — كل ارتفاع . أو انخفاض في هذا المستوى ؛ ولو بعشرات من الأمتار يؤثر في غروب الشمس أو شروقها بعشرات من الدقائق .
- ٣ — كل انبعاث عند خط الاستواء معناه انخفاض خط الزوال بعد خطي عرض ٦٠ درجة شمالاً ، وجنوباً عن هذا المستوى بقدر يسرع بالشمس إلى الغروب .
- ٤ — يمكن تحديد مستوى سطح الأرض ؛ ككرة تامة التكور بعمل تقويم لكل نقطة من نقطها بهذه النظرية العامة في التوقيت ، وما يتفاوت منه مع التقويم الواقعي . هو نتيجة ارتفاع أو انخفاض في خطوط العرض لهذه النقط ، فإذا قدرنا سرعة غروب الشمس في ارتفاع ما . . من الأمتار أمكننا أن نحدد هذا المستوى السطحي ؛ الذي يجب أن تأخذه الأرض .



و بعد . . . فهل نستطيع أن نفهم أن حياتنا اليومية . حياة تمثيلية للملأ
الأعلى ؛ فنعمل على إجادتها ؛ ونظير لها صفحة الأرض ؛ حتى يتناولها بقبول ؛
وارتياح ؛ كنتيجة لجهاد الإنسانية طوال ما مر من آلاف القرون .
كن ممثلا ما استطعت أيها الأخ . في أى وضع من أوضاع حياتك ؛
فإننا لا نستطيع أن نحيا حياة صحيحة إلا بالتمثيل .



هل تستطيع أيها الأخ السياسى أن تنازل عن شىء من واجبك إذا تعثر
في يدك ؛ لتتناول معه واجبا آخر ؛ فتقدم للأمة أى غذاء تنهض به .
لقد غنت كل وزارة ، ورقصت خزان أسوان . وأين خزان أسوان بعد
عشرين عاما أو تزيد ؟

ليس جلاء الإنجليز غرضا أسمى فى السياسة ؛ حتى تقال من أجله كل
وزارة . إنما الغرض الأسمى أن تخلق من نفوس شبابنا عدة للمستقبل ؛ وتجعل
منه سلاحا يكون لك من خلفك .

هل تعلم أيها الأخ السياسى أن دانقا يشتري به صوت من أصوات الأمة
ستندس به نفس لا تستطيع أن تناصرک على طول الطريق .

ليس الغرض الأسمى فى السياسة أيها الأخ أن تشتري الأعراض بالمال ؛
ليناصرک من الأمة شباب لم يعرف بعد معنى سياسة ، وغرض أسمى لسياسة .

إنما الفرض الأشهى أن نعلمه ، ونهذب به ، ونعوده جمع المال من طريقه المشروعة
ليعلم . . . كيف . ومتى يدافع عن حقوقه المسلوبة .

ألم تعلم أيها الأخ أن سعياً وراء السعادة من مال يجمع تحت ظلال من
الدين تسعة أعشار الدين . إذا علمت هذا . فاعلم أن وجبة طعام يتناولها المرء
من طريق غير مشروع تبني جزءاً من خلاياه على خطأ تسؤل عنه يوم القيامة .
لقد كان الأولى بنا أن نقيم المصانع ، وندعم التجارة على أساس شركات
ناوى فيها العاقل . ونهيب بها السعادة لكل فرد ؛ ليستطيع أن يكون لجسمه
من سعيه خلايا لا تتعثر بها روحه في صفحة السماء .

لقد كنا نوّد أن تنال حياتنا الاقتصادية من السياسة شيئاً من الاهتمام
مثل ما ناله منها الاهتمام بالإنجليز ، وجلاء الإنجليز . وكنا نوّد أن تجازف يد
من السياسة ؛ فتستبدل بأحيائنا الفقيرة ، وقرانا المنكودة قري ، وأحياء جميلة ؛
ليشعر ساكنوها بشيء من السعادة ؛ كصنيع نلتصر به لصفحة السماء أو نلتصر
به في جلاء الإنجليز .

تعال معي أيها الأخ هنيهة إلى هذه الأحياء لآرى ما بها من بؤس
الحياة ؛ فتعلم أننا ما زلنا عالقة على السياسة ، وما زلنا نضع لها الحراث أمام
الثور ؛ كما يقول المثل الفرنسى .

إن تجارتنا لا تساعد على تكوين رءوس أموال ما دامت تعتمد على
مجهود فردى . فهل نستطيع أن نحفظها من عبث الورثة . أو ضعفهم ؛ إذا ضاع
هذا المجهود ؟

إننا لا نستطيع ذلك إلا إذا جازفت يد من السياسة ؛ فأنت هذه
الحوانيت ؛ لتقيم تجارتنا ، وأعمالنا المالية في معارض ، وشركات تزدان بها
هذه الأحياء . أو تزدان بها صفحة السماء ، وعلنا بذلك نهيب للعامل أو التاجر
جزءا من السعادة ، والاستقرار في حياته الاقتصادية . يغبنيه عن التلاعب
بالأسعار .

ليست علاوة الغلاء علاجا ناجعا لحياتنا الاقتصادية ؛ بل هي تخدير
أعصاب له رد فعل سيء بالأمة . فهل نستطيع أن نستبدل بها مصنعا .
أو شركة ؛ فنضم حسنة لوزارة مشاولة من وزارة الأمة .

لقد أثبتت وزارة المعارف رجولة حينما تدخلت في شؤون التعليم بكافة
أنواعه . فهل لوزارة تجارة . . أو صناعة أن تتدخل في حياتنا الاقتصادية ؛
لتقييمها على أساس .

ما زال الفلاح . أيها الأخ . يطالب اللجنة من طريق غير مشروع . فهل
نستطيع أن نحقق له شيئا من السعادة ؛ كتجربة الأخرى .

و بعد فلعلنا نفهم بعد هذا أن رسالة محمد ، رسالة تعديل ،
وتقويم لكل وضع من أوضاع الحياة ؛ فنعمل على تحقيقه بما نستطيع .

الفهرس

الصفحة	الموضوع	العدد
٥	نشوء العقلية والتاريخ .	١
٧	غيب مأمول . أو تجارب الحياة وأثرها في تكوين العقل	٢
١٣	كيف خلق الله آدم .	٣
١٨	صراع بين جنسين على تفاضل .	٤
٢٦	تردد العقلية بين الهدم والبناء .	٥
٣٣	النشأة العامية . مدى هذه النشأة والقائمون بها .	٦
٣٨	كيف نشأت عقائد في الدين .	٧
٤٥	مبدأ الاختيار لرئاسة .	٨
٥١	نشأة السحر وعلم الفلك .	٩
٥٧	تعديل في مواقف السياسة والتاريخ .	١٠
٨٤	رابطة في اللغة .	١١
١٠١	رابطة في العقيدة .	١٢
١١٣	نشأة الأدب ومبادئ الاجتماع .	١٣
١٢٦	معنى الروح : « وبه شطر من الجانب اللاسلكي لموضوع الكتاب . أما الشطر الآخر فيلم به الموضوعان التاليان » .	١٤
١٣٥	الحالات الفكرية وأثرها في الجهاز العصبي .	١٥
١٤٩	التفريغ الهوائي .	١٦
١٥٧	توقيت علمي .	١٧

تدارك الأخطاء

التصحيح	الخطأ	السطر	الصفحة
إن الحياة	وإن الحياة	١٤	٧
لأدعى	لا أدعى	١١	١٦
الإناث	الأناث	٥١٠	١٦
ذلك النمط هو	ذلك النمط وهو	١٨	٤٣
أن يخلى	أن يحلى	١٧	٤٩
الإخوة	الأخوة	٥٣	٥١
الإخبار	الأخبار	٥١	٥٢
تتحالف	تتخالف	٨	٥٦
تحبهم	نحبهم	٥٣	٥٨
يبيع	يبع	٥٢	٧١
تسموا	تسمو	٤	٩٦